الحقيقة والخيال في أدب السيرة الذاتية
دراسة تحليلية تأصيلية

إعـــداد

د. أحمد علي أحمد آل مريع عسيري

كلية المعلمين في أبها – قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

في البدء: ماذا تقصد الدراسة بـ (الحقيقة) و(الخيال) هنا؟ ولِمَ استُعملتْ هاتان المفردتان دون غيرهما؟!.

المقصود بالحقيقة هنا: الصدق، وآثرت الدراسة لفظة (الحقيقة) لأنها أعم وأشمل وأدلّ على موافقة الواقع من لفظة (الصدق) المجرّدة؛ لأن من الصدق ما يكون باطلاً حين يُظهر المتكلم أو الكاتب بعض الحقيقة ويصمت عن بعض فيتوهم السامع أو القارئ شيئاً مخالفاً للواقع. والحقيقة -كما أحسبها- لا تكون باطلاً ولا كذباً أبداً، لأنها كل شيء أو لاشيء. وقد يحتال إلى إبرازها ونشرها بالدهاء والحيلة والمكر، ولكنّ ذلك لا يضرّ في دلالتها ولا قيمتها.

أما (الخيال) فلفظة تثير في النفس تداعيات عريضة لتعدد استعمالاتها وتداخل دلالاتها بصورة كبيرة، غير أن التحديد كفيل بزحزحة هذه الإشكالية عن أُفق الاستعمال الخاص بهذا الفصل، والمراد بها هنا: مخالفة الواقع، أي نقيض (الحقيقة). ولم يستعمل الباحث لفظة (الكذب)، لأن (الخيال) بالمعنى السابق فيه الدّلالة على المخالفة للحقيقة والواقع بالمعنى الواسع، سواء أكانت تلك المخالفة متعمَّدة أو غير متعمدة، و(الكذب) في العادة لا يستعمل إلا في حالة التعمّد والمخادعة، ولذا فهو مستهجن ومذمومٌ دائماً.

وقد أبقيتُ على مصطلح الحقيقة مقابلاً للخيال، لطبيعته المثالية، أما هل تتحقق (الحقيقة) أو لا، فشيء آخر، وسوف يأتي بعد ذلك استعمال مصطلح (الصدق) بدلالته النسبية في مجال الدرس. وهذان اللفظان - فيما أحسب - أقرب إلى التعبير المباشر والمناسب لطبيعة البحث العلمي، وأبعد في الوقت نفسه عن الغلظة والحدّة والنَّمطية.

وأعتقد أن القضية والتساؤلات باتت مكشوفة الآن؛ إذ تودّ الدراسة الوقوف على (الحقيقة) في السيرة الذَّاتية، وقدرة (السيرة الذَّاتية) على تمثل الصدق والتاريخ الموضوعي، ودرس قدرة الكاتب السيري على الحياد في تناوله لسيرته في الحياة، وإنصافه لذاته وقارئه بذكر ماله وما عليه بلا تزيُّد وادعاء أو مبالغة في التَّستر. وغير ذلك مما يمكن صياغته على هذا النحو: هل أدب السيرة وما يشتبك معها من أشكال أدبية،كـ (الذكريات والمذكرات والرسم الذاتي واليوميات والمفكرات والاعترافات وما يسمى بالمذكرات المغايرة أو الفوجا الذاتية...) قادرة على تقديم الحقيقة المجردة، التي تحرص نظريًا على الانتماء إليها من خلال ارتباطها الوثيق بالواقع؟ ومن أقدر الناس على اكتشافها، هل هو الكاتب نفسه أو الناقد أو هو التاريخ، أو أن المسألة أخفى من تقنيات البشر التي تحتشد للكشف عن مواطن التزوير؟ هل يعي كاتب السيرة أنه يقص وجهة نظر، أو يدون معادلة يمكن (حسابها) في دماغه، أو في أدمغة الآخرين دون اختلاف أو تباين في البداية أو الختام، وما المعوّقات التي تصرف الكاتب عن الجهر بما يعرف من حياته، سواءً دفعته للادعاء والمبالغة أو جعلته يؤثر الصمت؟.

لكن الذي يجب أن نتذكره، هو:

أننا نتعامل مع نصوص لها طبيعة الفن وإن طالبناها بموضوعية المؤرخ وحياديته.

أننا نتعامل مع متغير شديد التحول يستعصي على التحديد والتأطير، وهو الإنسان: الذي يتعسر علينا التنبؤ بأفعاله التي ينشئها، أو ردود الأفعال التي يصدرها تجاه الأشياء والأحداث؛ ولأن جزءًا كبيرًا من الصدق والخيال مرتهنٌ بأشياء لا يمكن قياسها . ولصعوبة التأكد مما يرد من أخبار وأحداث ووصف وشهادات تاريخية.

قد يبدو الجواب أول وهلة ميسوراً وبدهيًا، فمن يتحدث عن نفسه يملك حقيقة ما يتحدث عنه، ومن يملك الحقيقة يصبح أقدر على تسجيلها وعرضها ممن لا يملكها. فكاتب السيرة بهذا المعنى أكثر إلماماً بدقائق حياته، وأشدّ إحساساً بنبضات قلبه، وبدوافع حركاته ونوازع تفكيره وموقفه من العالم المحيط به. وهو دون غيره أكثر وعياً بتطورها من ناحية ووحدتها من ناحية ثانية؛ أليس هو ذاته المؤلف والبطل والممثل في وقت واحد لمسرحية الحياة[1].

ثم إن القدرة على التعبير عن التجارب الروحية لا تتوافر لإنسان ما من الناس كما تتوافر لمن يعانيها؛ فهو وحده القادر على الكشف عن شدّتها النوعيّة، ووصف الفروق الدقيقة بين أطوار التجربة الواحدة وتلوينها بألوان لانهاية لتدرجها. وفي هذه التجارب الروحية تتلخص حياة الإنسان بمعناها الصحيح؛ لأن بها وحدها يتميز الفرد الواحد من الآخر.

هذا بالنسبة للتجارب الداخلية، وهو في حياته الخارجية ليس بأقل قدرة؛ لأن حياة الإنسان كالبؤرة الضوئية تتجمع فيها أشعَّة يكاد يكون من المستحيل على من هو خارجها أن يتبين مصادرها، أو يحصر مداها، أو يدرك أثرها ومقدارها، أو يستوعب مالها وما عليها، فإن لبعض تلك الأشعّة سُبلاً ملتويةً معقدةً، وللآخر منها مسارب خفية لا تستبين للناظر إلا عند أطرافها البعيدة أو لا تكاد تظهر إلا لدى طرف واحد، هو المكان الذي تنتهي إليه؛ أي إلى صاحب الحياة التي تكونها هذه الأشعّة.

وكل هذا يؤكد جانب (الحقيقة) في السيرة الذاتية، فيكفي من يصف حياته أن يكون أميناً في وصفه، مخلصاً في نقل الحقيقة، دقيقاً في بيانها، لا تخدعه الأثرة، ولا يجور في سبيل الغرور كي يقدم لنا صورة صادقة كاملة

---

[1] ينظر: د. ماهر حسن فهمي: السيرة تاريخ وفن: ٢٣٩.

لهذه الحياة التي عاشها، ولما عاناه من تجارب روحيه، وما تنقل فيه من أحوال، وما مر به من أطوار[1]. يقول الدكتور (جونسون): «لابد أن يكون الشخص نفسه خير من يكتب سيرة حياته»[2] ويعلل لذلك في لهجته الحاسمة قائلاً: «الذي يكتب عن حياته عنده أول مؤهل من مؤهلات المؤرخ، وهذا المؤهل هو معرفة الحق. وبالرغم من أنّه قد يُعتَرض على ذلك بأن المغريات التي تزين له إخفاءه معادلة لفرص معرفته -وهو اعتراض وجيه- فإنني مع ذلك لا يسعني إلا أن أُقدِّر أن النزاهة يمكن أن تُنتظر من الذي يتحدث عن حياته بمقدار ما تنتظر من الذي يتحدث عن أعمال غيره، وما يعرف معرفة تامَّة لا يمكن تزييفه إلا بعد أن يتردد العقل ويرتاع الضمير. والعقل يؤثر الحق والضمير هو حارس الفضيلة، والذي يتحدث عن نفسه ليس هناك ما يدفعه إلى الكذب أو التعصب سوى حب النفس، وهو طالما خدع الناس حتى أصبحوا جميعهم يحذرونه ويتقون حيله وألاعيبه»[3].

غير أن معاودة النظر تجعلنا نتردد كثيراً قبل التسليم لهذا الظن المتعجل؛ لأن العين لا ترى نفسها إلا بمرآة -كما يقول أحمد أمين[4]- فالشيء كلما ازداد قرباً صعبت رؤيته، وفي ذلك تقول العرب: «شدّة القرب حجاب».

---

(1) ينظر: د. عبدالرحمن بدوي: الموت والعبقرية: ١٠٠-١٠١ (وكالة المطبوعات، الكويت، د. ط. ت).

(2) نقلاً عن: أندريه موروا: أوجه السيرة: ١٠٩ (ترجمة ناجي الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة ودار الحرية للطباعة، العراق – بغداد، د. ت.).

(3) نقلاً عن علي أدهم: لماذا يشقى الإنسان: ٢٦٠-٢٦١ (مطبعة نهضة مصر، مصر – الفجالة، د. ط. ت.).

(4) ينظر: حياتي: المقدمة: ص٣ (مكتبة النهضة، مصر – القاهرة، ط٧، ١٩٨٩م).

ألا تمرّ بأحدنا لحظاتٌ ينكر فيها نفسه التي يحملها بين جنبيه؟! أما شعر أحدنا بتأنيب الضمير ساعة من ليل أو نهار، لأنّه أقدم أو أحجم، وهو لا يرى للإقدام أو الإحجام مسوّغاً يتفق مع مُثُله وقيمه ولا حتى دوافعه الكامنة وحاجاته الملحة؟! فعلام يدل ذلك؟!

إنه ليدل على أنّ «للنفس أعماقاً كأعماق البحار، وغموضاً كغموض الليل، فالوعي واللاوعي، والعقل الباطن والظاهر، والشعور البسيط والمركب، والباعث السطحي والعميق، والغرض القريب والبعيد، كل هذا وأمثاله يجعل تحليلها صعب المنال، وفهمها أقرب إلى المحال... ومن أجل هذا كان قول (سقراط): «اعرف نفسك بنفسك» تكليفاً شططا وأمراً يفوق الطاقة...»[1].

المبحث الأول :

صعوبات تحول دون الصدق في كتابة السيرة الذاتية:

يقف دون تحقق الصدق التام الخالص/الحقيقة في كتابة السيرة الذّاتية وما شاكلها من الفنون عقباتٌ كثيرة، منها:

١. النسيان الطبيعي:

فحالما يشرع الكاتب في الكتابة يكتشف أنه قد نسي جزءاً كبيراً من ذكرياته، وتبدو الطفولة لكثير من المتحدثين أو الكاتبين عن أنفسهم صفحة بيضاء إلا من بضع ذكرياتٍ صغيرةٍ معزولةٍ في بحر مظلم من النسيان، ومشاعر مضطربة اختلطت (باقترانات) ضاعت جذورها في بحر من الغموض. وتلك الصور المسترجعة المتقطعة لا تكفي لتفسير الخصوصية الفرديّة المعقدة التي تكتسبها الشخصية في السادسة أو السابعة أو ما قبلها من سني العمر التي تتشكل فيها أبعاد الشخصية الإنسانية وسماتها العامة.

---

[1] السّابق: ٣-٤.

وآلية النسيان ليست مقصورة على مرحلة الطفولة دون غيرها من مراحل العمر، فالنسيان يعمل طول الحياة ليسلبنا ما استودعناه (ذواكرنا) من غير إنذار أو إخبار. ولهذا كان الأصلح والأسلم أن يحتفظ الجميع بمذكراتهم ويستعدوا لهذه اللحظة بكتابة المذكرات لكي يستعينوا بها على الاسترجاع وتنسيق الحياة وترتيب أحداثها المتداخلة بأسلوبٍ أكثر انضباطاً واتصالاً، وذلك – بالطبع – بالنسبة للفترات التي عاشها الكاتب بعد أن وعى الحياة، واستكمل قدراته على الكتابة، أمّا بالنسبة لمرحلة الطفولة فإنّها على أهميتها تبقى فترة مُهدرة من تاريخ الإنسان. ولعل من الخير أن تُستعاد تلك الذكريات عنها ممن عاصر طفولته، أو سجلها له في مذكرات، وهذا الاحتمال الأخير ضعيف ونادر[1].

٢. التَّناسي/ النسيان المتعمّد:

يلجأ كاتب السيرة الذاتية شاء أم أبى – إذا كان كاتباً موهوباً – إلى جعل حياته التي عاشها عملاً فنيًّا فينتقي ويختار، ويعيد التركيب وفق البناء الذي يراه. وهو لاشك واجدّ نفسه بإزاء مادة واسعة وكثيرة قبل أن يختار

---

[1] يتميَّز بعض كتاب السيرة وما شاكلها بمقدرتهم على استعادة ذكريات طفولتهم المبكرة؛ فالدكتور: محمد عابد الجابري يعود بذاكرته إلى بعض الوقائع فيما قبل الفطام وبعده بقليل، ويذكر أثرها في نفسيته. كما أن تولستوي– على حدّ قوله!!– يحتفظ بانطباع زاهٍ عما شعر به في الشهر السادس من عمره عندما وضع في إناء خشبي للاغتسال. وكذلك نجد طه حسين والشيخ علي الطنطاوي قد نجحا في العودة إلى مرحلة مبكرة من الطفولة، نحو سن الخامسة تقريباً. (ينظر: د. محمد عابد الجابري: حفريات في الذاكرة من بعيد: ١١–٤٤ (مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان – بيروت،ط١، ت أغسطس ١٩٩٧م)، وطه حسين: الأيام: ١/٣–٢٨ (مصر – القاهرة، ط٥٤، د. ن. ت.)، وعلي الطنطاوي: الذكريات: ١/٢٥–٥٧ (دار المنارة، السعودية – جدة، ط١، ت١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م)، وأندريه موروا: أوجه السيرة: ١١٠.

ويصطفي، وبعد أن يختار ويصطفى أيضاً؛ فإن الحياة طويلة بالقياس إلى المساحة الورقية واللغويّة والمسافة الزمنية المراد كتابتها فيها، وتقديمها للقارئ. ولذا يعاود الكاتب الانتقاء ولابُدّ من الحذف فلا يُبقي من الأحداث والوقائع إلا على المهم والجدير فعلاً بالبقاء، وهذا العمل – وإن كان ضروريًّا – إلا أن فيه طمساً لمعالم كثيرة من الذكريات وتغييباً لبعض الحقائق ولو كانت تافهة فإن لها قيمتها ومكانتها من الحياة ولاشك.

ومن جهة أخرى فإن ما يقدم عليه الكاتب من الحذف والانتقاء الذي يعتمد على الأهمية والنوعية سوف يولد لدى المتلقي انطباعاً بأن حياة الكاتب الذي يسرد قصته تختلف عن حياة الآخرين، وهي في الحقيقة لا تختلف عنها في كبير أمر، ولكنّ الكاتب انتقى ما يدفع إلى الظن أنّه عظيم وسحب على (العادي) و(المشترك) وماله صفة (العموم) من أمور الحياة ستاراً كثيفاً من النسيان المتعمّد، وكأن حياته لم تعرف إلا الوقائع المتميزة والأحداث الخطيرة.

وخداعُ القارئ هنا خداع جميل لأنه يُصيِّر السيرة عملاً بطوليًّا يستحق القراءة والتقدير، فالحياة الخاملة والبسيطة لا تجذب الانتباه، ولا تَلْفِتُ إليها أحداً. يقول سبنسر: «يضطر كاتب السيرة، أو السيرة الذّاتية إلى حذف المادّة العادية للحياة اليوميَّة من قصته، وإلى تحديد نفسه كُليّاً بالأحداث والأعمال والخصال الملفتة [للانتباه]. إن كتابة الكتب الغَثَّة وقراءتها أمر مستحيل رغم أنها مطلوبة في حالات أخرى، فعندما يستبعد الكاتب ذلك الجزء الممل من حياة الشخص المعني –وهو الجزء الأعظم الذي يشترك به مع الأشخاص الآخرين– ويقدِّم الأشياء الصارخة فحسب،

فإنّه يخلق الانطباع بأن حياة هذا الشخص تختلف عن حياة الآخرين أكثر مما هي فعلاً، لامناص من هذا النقص»[1].

٣. الرقابة الطبيعية:

وهي التي يمارسها العقل على كل ما هو كريه وسمج أو بتعبير النفسانيين[2]: الميل الطبيعي إلى نسيان الأمور المنافية، والنفور من تذكر الأشياء التي تثير في نفوسنا انفعالاً مؤلماً. فنحن ننسى اسم الشخص الذي لا نحبه، وننسى مكان الشيء الذي نريد أن نضيعه، وكذلك الكاتب حين يقف على مرحلة من حياته فإن كان فيها ما يثير الألم والخوف أو التعاسة؛ فإن الذاكرة بدافع من النفس والعقل تحاول أن تتخلص منها أو من أحداثها ووقائعها المؤسفة. وقد لا يشعر الكاتب نفسه بذلك، وقد تستبدل الذاكرة بذلك الواقع صورة من نسج الخيال تحوّل الألم إلى فرحة أو تغير من واقعه المفزع في أذهاننا. يقول أندريه موروا: «ليس النسيان الوسيلة الوحيدة التي تغير السيرة بفعلها وجه الحقيقة. الوسيلة الأخرى هي الرقابة الطبيعية التي يمارسها العقل على كل ما هو كريه وسمج. دعنا نعود قليلاً إلى متعة الطفولة، فإذا كانت تبعث على السخط أو الشعور بالعار، لن تُروى بصدق على الإطلاق. إننا نتذكر الأشياء عندما نريد أن نتذكرها، ونودع في طيات النسيان كل ما يؤذينا – نُغيّره بوعي في البداية، نجعل قصتنا أكثر إمتاعا، أكثر حيويَّة، أكثر إثارةً من الحدث الفعلي، نجاحنا هذا يشجعنا على المضي في مسعانا حتى نبلغ بالتدريج مرحلة لا نتذكر عندها سوى القصة وننسى الحدث الفعلي. وبمرور الزمن يحل عمل مخيلتنا محل الصور الباهتة لواقع

---

[1] نقلاً عن: أندريه موروا: أوجه السيرة: ١١٤-١١٥.

[2] ينظر: جميل صليبا: علم النفس: ٤٠٩ (دار الكتاب اللبناني، لبنان – بيروت، ط٣، ت ١٩٧٠م).

زائل... ليس ثمة سُوء نية في هذا التزييف، لكنه مع ذلك تزييف يُغير وجه الحقيقة»[1].

٤. التكتم وعدم الإفضاء:

وهو تجنب الجهر بالمساوئ والمعايب التي اقترفها الكاتب في حياته، سواء كان ذلك ناتجاً عن الحياء أو الخوف من المجتمع الذي يقيم فيه الكاتب. ولن تستطيع الصراحة كائناً ما كان حرارتها وقسوتها، أن تقضي على الحياء قضاءً تامًّا أو شبه تام، وأن تمنعه من أن يحدث أثره ويلعب دوره، بل إن الحياء نفسه قد يتخذ من الصراحة أداة غير مباشرة لتحقيق مآربه؛ بأن يكون المرء صريحاً في ناحية خطيرة على حساب ناحية أخرى أخطر وأفظع في نظر الناس، أو أقل خطورة من سابقتها ولكنها في نظر الكاتب أخلق من الأُولى بالستر والإخفاء، فيخدع بما يذكره القارئَ عن شيء يستره ويخبئه، حتى لا يطَّلع عليه أحد أو يفطن للبحث عنه.

وقد لاحظ (استيفان اتسفايج) أن (روسو) الذي بلغت الصراحة به في (اعترافاته) حدّ الوقاحة الفجَّة، لا يجد حرجاً في ذكر أفضح المسائل الجنسية، ولا يتورّع عن القول أنّه كان يرسل أبناءه إلى ملجأ اللقطاء، كان يفعل ذلك لأنه يُخفي حقيقة أشدّ إيلاماً بالنسبة لنفسه، وهي أنّه لم يكن له أولاد، لأنه لم يكن في استطاعته ذلك[2]؛ فهذه الصراحة الفاضحة في ناحية ليست إلا لحساب الحياء أو الخوف في ناحية أخرى.

ولا تظُنَّن الرهبة أو الحياء مقصورين على الناحيتين العاطفية والجنسية وحدهما، وإن كانت هاتان الناحيتان أوضح نواحيهما، ولكنّهما عامتان وشاملتان تنتظمان مرافق الحياة الإنسانية جميعها، فيدفعان الإنسان إلى أن

---

[1] أوجه السيرة: ١١٥-١١٦.

[2] نقلاً عن د. عبدالرحمن بدوي: الموت والعبقرية: ١٠٣.

يخفي ما هو عليه من نقص، وما يعتور سلوكه ونشاطه من عيوب؛ فلا قِبَل للإنسان إذاً بالتعري سواء منه ما هو جسمي وما هو روحي[1].

وقد لاحظ بعض الدّارسين العرب أننا في المشرق «كما حرصنا في تراثنا الشرقي -حتى قبل انتشار الديانات السماويّة في منطقتنا- على سيادة عدم تعرية الجسم الإنساني بوجه عام، والأعضاء الجنسية بوجه خاص - وهو ما يعرف في الفن التشكيلي باسم التعفف- وذلك على نحو ما نرى في النَّحتين الفرعوني وما بين النَّهرين (العراق حاليًّا) فإننا حرصنا كذلك على عدم تعرية نفوسنا حين نتحدث عنها على عكس ما نجد في الغرب: فَنِّه التشكيلي وسيرته الذاتية على حد سواء»[2].

٥. التواضع المسرف:

يقود التواضع المسرف الكاتب إلى الكذب ولو بحسن نيّة، ذلك حين لا ينصف الكاتب نفسه؛ فيغفل عن جانبه الآخر أعني: مآثر شخصيته ومحاسنها، أو يقسو عليها فيحاسبها بشدّة ويتصيد عيوبها، ويضيف عليها رذائل وسقطات هي منها برينة.

وسواء كان الدافع إليه خُلقيًّا كالزهد أو التواضع ونكران الذّات، أو مرضيًّا كالرغبة في تعذيب النفس (الماسوشية- Masochism) فإن المحصلة النهائية هي: عدم الدقة، ونقصان جانب مهم من جوانب الحقيقة، وذلك تمويه ومخادعة.

---

[1] ينظر: السابق: ١٠٢-١٠٣.

[2] يوسف الشاروني: تراثنا والاعتراف.. الخوف من تعرية الذات: ٨٣ (مقالة - مجلة العربي، العدد ٤٤٤، نوفمبر ١٩٩٥م).

٦. الاختراع والتزيد:

وأكثر ما يكون الاختراع والتزيد فيما يتصل بتمجيد الذّات ومدحها، والمبالغة في رفعها عن منزلتها الحقيقية. وقد يبدو - للأسف الشديد- تزييف النفس وبهرجتها والانحراف معها ضد الحقيقة، في أكثر الأحيان شيئاً مستساغاً غير منكور لا يلفت الانتباه، وهنا يكمن الخطر!! وقد يكون الكاتب نفسه أول المخدوعين بما تقدمه له ذاكرته. فالذاكرة -كما يرى د. عبدالرحمن بدوي[١]- ليست آله صماء تسجل الأحداث والأفكار دون تمويه أو تشويه أو دون زيادة ولا نُقصان، وإنّما هي جزء من نسيج الإنسان الحي يتطوّر ويتغير. أو هي -كما يرى الأُستاذ علي أدهم[٢]- فنانٌ عظيم تختار وتُحسّن الاختيار، وتخلق من حياة كل رجل وامرأة طُرفة فنية رائعة.

فالذاكرة تضع الحوادث في إطار من السببية، وتصبها في قالب من التعليل المقبول، وتُهيّئ لها الأسباب والمقدّمات، وتُظهرُها في مظهر النتيجة المحتومة والمقصودة سلفاً، وأكثر تلك الحوادث جبريّة لا اختيار له في إتيانها، ولكن اندفع فيها قهراً، أو قَدَّر القيام بها على نحو غير ما وقعت عليه، ورسم خطتها في مخيلته بطريقة مباينة. وأوضح نموذج في هذا الباب مذكرات كثير من العسكريين والقادة، فهم يزعمون أن الخطة التي وضعوها للدفاع أو الهجوم والكر والفرّ، هي بعينها الخطة التي حدثت على نحوها المعركة في أرض الواقع، مع أن خططهم الرئيسيّة عبثتْ بها رياح المعركة منذ التقى الجمعان.

---

[١] ينظر: الموت والعبقريّة: ١٠٧.

[٢] ينظر: لماذا يشقى الإنسان: ٢٦٢-٢٦٣.

وكثيراً ما تختلق الذاكرة بواعث سامية نزيهة لأعمال قام بها الإنسان، والحقيقة أن هذه البواعث النبيلة لم تخطر له على بال. وقد يبدل أحد الناس معتقده الديني أو رأيه السياسي أو ولاءه الوطني لأسباب تافهة، ولكن يأبى أن يكون صريحاً مع نفسه وصادقاً مع قارئه، فيعزو تحوله -فيما بعد- إلى تطور داخلي في تفكيره، أو لظروف خارجية قاهرة لا سبيل إلى الخلوص منها إلا بتحوله إلى ما انتقل إليه. ذلك أن طبيعة الإنسان تأبى قبول المتناقضات على علاّتها، وتحاول على الدّوام أن تخرج منها وحدة متماسكة، وترد فوضاها إلى التناسق والنظام[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن كاتب سيرته -لاسيما الأديب الذي يود أن يترك أثراً أدبيًّا- يحاول جاهداً أن يقدم لنا حياته عملاً إبداعيًّا متجانساً، «كلوحة فنية رائعة، روعيت فيها النسب والأوضاع، وأحسن فيها توزيع الأضواء والظلال، أو كقطعة موسيقية بارعة، لم يوضع اللحن الواحد بجانب الآخر إلا تبعاً لقوانين الانسجام، ولم تختلف النغمة عن النغمة شدّة وتنوعاً إلا حسبما تقتضيه قواعد التأليف؛ فكأنهم إذا كتبوا ترجمة لحياتهم سيكتبونها كروائيين، يخلقون الكثير من وقائعها، ويؤلفون بين أحداثها تأليفاً بديعاً، ولكنّه بعيد عن الواقع كل البعد؛ فالخلق والاختراع إذاً ضرورة لامناص من الخضوع لما تقتضيه»[2].

---

[1] ينظر ماتقدم: د. عبدالرحمن بدوي: الموت والعبقرية: ١٠٤-١٠٥، وعلي أدهم: لماذا يشقى الإنسان: ٢٦٣-٢٦٤.

[2] د. عبدالرحمن بدوي: الموت والعبقرية: ١٠٥-١٠٦.

٧. التحرج من الأصدقاء والمعاصرين:

ولو استطاع كاتب السيرة التحرر من رغبات النفس في التزيد والمبالغة والاستكثار، وكان صادقاً عادلاً لا يمنعه حياء ولا يحجزه خوف ولا تخدعه أثرة، ولا يغريه الفن بالاختراع، وكان قاسياً مع ذاته جريئاً مع الآخرين صريحاً كأقسى ما تكون الصراحة، فهل يستطيع ذلك مع الأصدقاء والأحباب والأقارب، أو أصحاب الجاه والمكانة في المجتمع، أو ممن تضرّ معاداتهم وتنفع ممالأتهم؟!

وأغلب الظن أنّه سيجد من «نفسه وازعاً، ويشعر بشيء غير قليل من الحرج، وهو يقص ما كان بينه وبينهم من صلات ومغامرات. وصلات الإنسان بغيره من الناس لها النصيب الأوفر في تكوين نسيج حياته؛ فكأن جزءاً كبيراً إذاً سيتورع صاحب الترجمة الذاتية عن ذكره، مما يجعل الصورة التي يقدمها لنا مبتورة لا تخلو من الهوّات والاضطراب»[١]. يقول أندريه موروا: «لو اعتزمنا قول الحقيقة كلها عن حياتنا، فإننا لا نملك حق قول الحقيقة كلها عن حياة الناس الآخرين، أو في الأقل لا نعتقد أننا نملك هذا الحق»[٢]. وقد يكون المسكوت عنه أهم وأغنى من المفصح عنه، لقيمته التاريخية أو لدلالته النفسية أو الوجدانية أو الاجتماعية أو أثره في تكوين شخصية البطل صاحب السيرة.

مواقف الدّارسين من (صِدْقِيَّة) السيرة الذاتية:

١- فريق يطمئن تمام الاطمئنان إلى فن السيرة الذّاتية وما شاكلها، ويثق تمام الثقة في كاتبها، ويعدُّه الأقدر والأجدر بالكتابة عن نفسه؛ لأنه يمتلك الحقيقة. ويهون من جميع المعوّقات السابقة؛ فالإنسان لم يعد فريسة سائغة لنوازع النفس

---

(١) السابق: ١٠٦.

(٢) أوجه السيرة: ١١٩.

الدَّنيئة، لأنه قد تجاوز مرحلة الزَّيف وبهرجة الذَّات؛ ولأنَّ العقل الفطن والضمير الحيّ حارسان أمينان ورقيبان نابهان، يؤثران الحقَّ على الباطل والفضيلة على الرذيلة، وينفيان عن السيرة كل تزيّدٍ وادعاءٍ أو تجنٍ وبهتانٍ.

ويمثل هذا الاتجاه الدكتور جونسون، الذي يقول: لابد أن يكون الشخص نفسه خير من يكتب سيرة حياته... الذي يكتب عن حياته عنده أول مؤهل من مؤهلات المؤرخ، وهذا المؤهل هو معرفة الحق. وبالرغم من أنّه قد يُعتَرض على ذلك بأن المغريات التي تزين له إخفاءه معادلة لفرص معرفته – وهو اعتراض وجيه– فإنني مع ذلك لا يسعني إلا أن أُقدِّر أن النزاهة يمكن أن تُنتظر من الذي يتحدث عن حياته بمقدار ما تنتظر من الذي يتحدث عن أعمال غيره، وما يعرف معرفة تامَّة لا يمكن تزييفه إلا بعد أن يتردد العقل ويرتاع الضمير. والعقل يؤثر الحق والضمير هو حارس الفضيلة، والذي يتحدث عن نفسه ليس هناك ما يدفعه إلى الكذب أو التعصب سوى حب النفس، وهو طالما خدع الناس حتى أصبحوا جميعهم يحذرونه ويتقون حيله وألاعيبه[1].

٢– فريق يرى السيرة الذاتية وما شاكلها من الآداب أكاذيبَ وتلفيقاتٍ وادعاءات جوفاء خالية من الحقيقة (خيالات وأوهامًا) وممن يرى هذا الرأي (برنارد شو) والكاتب الألماني الفكه (*Wihelm Busch*)، يقول (برنارد شو): «التراجم الذاتية جميعها أكاذيب، ولا أعني بذلك أنها أكاذيب غير متعمّدة وبدون وعي، وإنما أعني أنها أكاذيب مقصودة. فليس هناك إنسانٌ

---

[1] راجع النص: أندريه موروا: أوجه السيرة: ١٠٩، وعلي أدهم: لماذا يشقى الإنسان: ٢٦٠–٢٦١.

يبلُغ به السوء إلى حدّ أن يحدثنا عن حقيقة نفسه في أثناء حياته. إذ يلزم أن يتضمن ذلك ذكر الحقيقة عن أسرته وأصدقائه وزملائه»[١].

ويقول (*Wilhelm Busch*): «لا شيء يبدو على حقيقته التامة، ناهيك عن الإنسان، هذه التركيبة الجلدية التي تفيض بالحيل والنزوات، وأقنعة الزهو والخيلاء. وكُلّما أراد المرء أن يعرف شيئاً اضطر إلى الاعتماد على الرأس بل الرؤوس، وهم خدمٌ لا يوثق بهم، فأنّى له أن يعرف الأحداث على اليقين. ومَنْ منّا في هذا العصر بتلك السذاجة؛ حيث يصدق أقوال التراجم، أو تواريخ العالم، إنها كالأساطير أو الحكايات، وماذكرت الأسماء فيها، وعُيِّن زمانها ومكانها إلا ليسهل تصديقها...»[٢].

٣- أما الفريق الثالث فيذهب إلى أن فيها شيئاً كثيراً من الصدق وكثيرًا من الخيال، وأن الصدق في السيرة الذاتية مجرد محاولة. وهو صدق نسبيّ وليس شيئاً متحققاً، لأن هنالك عوائق تعترض سبيل المترجم لنفسه، وتحول بينه وبين نقل الحقيقة الخالصة[٣]. ويرى هذا الفريق أنه بقدر اقتراب السيرة الذاتية من هذا المثال البعيد/ الحقيقة الخالصة تكون قيمتها الموضوعية[٤].

وأخيراً: إن السيرة الذاتية تتطلب الصدق الواقعي كما تتطلب الصدق الفني؛ فالأول لأنه (الحقيقة) التي يُفتش القارئ عنها ويرجو من الكاتب أن يرشده إليها، والثاني لأنه الوسيلة التي تُؤدّى بها الحقيقة، فمن حق الوسيلة

---

[١] نقلاً عن: علي أدهم: لماذا يشقى الإنسان: ٢٦١.

[٢] نقلاً عن: د. رُودلف زلهايم: خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية: ٣٠-٣١ (مقالة - مجلّة مجمع اللغة العربية - جـ٤١، الدورة الرابعة والأربعون، جمادى الأولى ١٣٩٨هـ - مايو ١٩٧٨م).

[٣] د. يحيى عبدالدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: ٦.

[٤] د. ماهر حسن فهمي. السيرة تاريخ وفن: ٢٣٩.

أن تكون: قادرةً وموصلة ودالةً على الكاتب، وذلك لا يتحقق في الوسيلة اللغوية إلا إذا كانت تعبيراً أصيلاً نابعاً من تجارب صاحبه وثقافته وفكره وهمومه بعيداً عن الخداع.

أما الحق الكامل فشيء ليس في مقدور الإنسان، واللَّه لا يكلف الإنسان فوق طاقته. ويكفي أن نعرف أن أحد فلاسفة القرن السابع عشر الميلادي، وهو (بوسويه *BOSSUET*) يذهب إلى أن التذكر في حدّ ذاته نشاط تخييلي، لأنه يقوم على استرجاع صور ذهنية لواقع انتهى واضمحل، يقول: «ليذهب الشيء الذي أنظر إليه من أمامي، ولتهدأ الضجَّة التي أسمعها، ولأنقطع عن تجرع الشراب الذي أحدث في لذّةً، ولتنطفئ النار التي كانت تُدفئني، وليعقب الحرارة -إذا شئت- إحساس بالبرودة، فأنا أتصور وأتخيل هذا اللون وهاتيك الضجّة، وهذه الحرارة، وتلك اللذة. فإذا عادت إليَّ في الظلام والسكون، صورة ما سمعت وما رأيتُ، لم أقل: إني أراها أو أسمعها، بل قلت: إني أتخيلها...»[1].

ويحسن بي أن أختتم هذا الموضوع برأي أحد كتاب السيرة بنوعيها الذاتي والغيري، كتبه بموضوعية عقب فراغه من كتابة (ذكرياته) صَوَّر فيه خيبةَ الكتابة/اللغة وقصورها عن الوفاء بحاجات المرء في استعادة حياته على مسرح الواقع من جديد، وهو الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - يقول:

«ما هذه الذكريات؟!!

كان من رفاقنا الأقدمين أخٌ أُولع بالكيمياء، ينفق عليها ماله، ويضع فيها جهده، حتى برع فيها وصار من علمائها. كان يقطر العطر تارة فإذا

---

[1] يُنظر كتاب: معرفة الإله والنفس، فصل: (١) فقرة: (٤)، نقلاً عن: جميل صليبا: علم النفس: ٣٤٠.

دخلت معمله شممت منه رَيًّا روض أريج، أو جنّة فوّاحة الأزهار... أودعها قوارير يضع عليها أوراقاً يلصقها بها تُبيِّن الذي فيها.

ثم كبرنا ومَرّ دهر، وانصرف عن الكيمياء حتى ما يفكر فيها، وزرته يوماً فسألته أن يريني معمله، فقال: وماذا تريد منه؟ إنك لن تستطيع دخوله، فأصررت، فأخذني إليه؛ فإذا العنكبوت قد عشعش على بابه، والغبار قد تراكم فوق رفوفه.

ونظرت إلى تلك القوارير فإذا هي فارغة كلها، قد طار ما كان فيها. فجعلتُ أقرأ اسم العطر: عطر الورد أو الزنبق، أو الفل أو الياسمين، وما ثَمّ عطر ولاشيء يشبه العطر، وأقرأ أسماء حامض الكبريت، وما لستُ أدري ما هو وما بقي منه شيء. أما القوارير التي لم يلصق بها اسم ما فيها، فلم يعد يعرف أحد ما كانت تحتوي.

هذا مثالي حين أكتب ذكرياتي، ذهبت المسرّات والآلام، وما بقي إلا صورة لها، فارغة منها فما فائدة كتابة الذكريات؟!!»[1].

إن الإشكالية التي يثيرها الشيخ الطنطاوي هنا هي إشكالية اللغة وقدرتها على استعادة الحياة وتمثيلها من جديد بكفاءة، بحيث تثير في النفس المشاعر نفسها التي عرفها الإنسان، وهو يجتازها واقعياً لأول مرة، وبحيث لا تكون تلك اللغة عباراتٍ مزيفةً، تخدع أكثر مما تمثل وتؤدِّي. ولهذا فهو يُلحُّ كثيراً على مسألة عجز اللغة عن التصوير والتعبير الحقيقيين عن الوجدان والمشاعر والواقع؛ فالطنطاوي يرى أنها (أي: اللغة)، عاجزة عن الوفاء بذلك، ومن ثَمَّ هي عائق يصعب تجاوزه لمن أراد أن تكون سيرته صادقةً صدقًا مطلقًا.. يقول مقررًا ذلك في موضع آخر:

---

[1] ذكريات الشيخ علي الطنطاوي: ٨/١٣٤-١٣٥.

«... ما أذكره كيف أقدر أن أُثبته على الورق؟ إن أجمل آثار الكاتب أو الشاعر هي التي لم يكتبها. ومتى كانت الكلمات تسع العواطف والأفكار، ومتى كانت تسجل كل مشاهد الكون، فضلاً عن مشاعر النفوس؟ أتقدر أن تسجل ألوان الغروب حتى لا يفوت قارئ قصيدتك -أيها الشاعر- أو ناظر لوحتك -أيها الرسام- شيء منها؟!

كم قال الشعراء، وكم كتب الكُتَّاب في (الحب)، فهل أحاطوا بمعاني الحب، هل أدركوا أسرار الجمال؟ هذه الكلمة المكونة من حرفين اثنين: الحاء التي تُعبِّر عن الحنان، والباء الساكنة التي ترى الفم وهو ينطق بها مجموع الشَّفتين كأنّه متهيِّئٌ لقبلة!! هل تحيط كلمة (الحب) بكل أشكال الحب، الأم تحب ولدها، وهذا يحب من الشعراء البحتري، والثالث يحب من البلاد مكّة، والرابع يحب ركوب البحر، والخامس يحب الفول المدمس بالزيت لا بالسمن... وقيس يحب ليلى، أفهذا كله (حب) واحد؟ وحب اللَّه الذي هو جوهر الإيمان أترونه يشبه ما ذكرت من أنواع الحب؟

والجمال؟ جمال الطبيعة، وجمال البلاغة، وجمال الشيخ الوقور، وجمال المرأة الحسناء، هل هو (جمال) واحد؟ ولو جئت بمئة جميلة لوجدت مئة جمال، كل له طعم، وكل له لون، وكل من نوع، وما عندنا لهذا كُلّه إلا كلمة واحدة، لذلك نعمد إلى الأوصاف، فنقول: هذا جمال وديع، وهذا وحشي، وهذا شهواني، وهذا ما لست أدري... إن لغات الأرض تعجز عن التعبير عن مشاعر النفوس، فكيف نريد منها أن تعبر عن عالم (ما وراء المادّة) عن (عالم الغيب)؟!» [1].

---

[1] السابق: ١/١٠٩-١١٠.

ويبقى سؤال آخر: عن الكيفية التي يتعامل بها الكاتب المسلم مع الوقائع والأحداث والخصوصيات، التي يتعلق بذكرها كتاب السير عادةً؛ فدارسو (فن السيرة الذاتية) يغفلون الإشارة إلى (الدِّين) ضمن المؤثرات في كتابة السيرة عند الكاتب الملتزم بقيمه؛ فهو يحجر عليه من جانب، كما يوجهه في جوانب أخرى، فهو يدعوه إلى إحسان الظن بالناس، والتثبت فيما ينقل أو يروي، ويرشده إلى توخي الحذر، والبعد عن الظلم ورواية التهم دون تحقق؛ وبذلك تتحقق لكاتب السيرة الذَّاتية دوافع نبيلة خاصة تأخذ بيده إلى مزيد من العدالة والموضوعية؛ كما تقف تعاليم الدين الأخلاقية والسلوكية حاجزًا دون مقارفة الكتابة ما يؤذي الحياء أو يخدش العفة. فالدين ليس شعائر تؤدّى فحسب؛ ولكنه عقيدة تنظم التفكير وتوجه النشاط الإنساني على وجه عام. وسوف نعرض له في المبحث الثاني؛ بعون الله.

المبحث الثاني:

الصدق وكاتب السيرة الذاتية المسلم*

حين يُتحدث عن الصدق عند الكاتب المسلم فإن الأمر مختلف جداً، لاسيما في فن السيرة الذاتية وما شاكلها من الفنون المعتمدة على الصدق، وربما تم بين الطرفين (الكاتب – القارئ) ما يُشبه التَّواثق على قول الحق والصدق، لأن المسلم الحقّ صادقٌ يُحب الصدق، ويلتزمه ظاهراً وباطناً في أقواله وأفعاله.

والمسلم لا ينظر إلى الصدق خُلقاً فاضلاً يجب التخلق به لا غير، ولكنّه يذهب إلى أبعد من ذلك، يذهب إلى أن الصدق من متممات إيمانه، ومكملات إسلامه؛ إذ أمر اللَّه تعالى به، وأثنى على المتصفين به فقال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [1]، كما أمر به رسول اللَّه ﷺ؛ فقال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البّر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند اللَّه صديقاً. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند اللَّه كذّاباً»[2]. وحذّر عليه الصلاة والسلام أشد التحذير من الكذب، ونفى أن يتصف به (المؤمن) فقال في الحديث الذي يرويه أبو

---

* مهمة هذا المبحث تنحصر في تقديم الجانب النظري، وليس رصداً لواقع الصدق في سير الكُتّاب المسلمين.

[1] سورة التّوبة: ١١٩.

[2] صحيح البخاري: ٥٢٣/١٠ حديث رقم (٦٠٩٤) (بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني، تحقيق وتعليق: الشيخ عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب، ومراجعة وترقيم: قصي محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار ريان للتراث، مصر – القاهرة، ط١،ت١٤٠٧هـ-١٩٨٣م).

أمامة: «يطبع المؤمن على كُلِّ طبعةٍ» وفي روايةٍ: «على الخلال كلها» وفي روايةٍ: «على كل شيءٍ إلا الخيانة والكذب»[1]. وسئل رسول اللَّه ﷺ عن المؤمن هل يكون جباناً؟!

- «فقال: نعم...
- قيل: هل يكون بخيلاً؟
- قال: نعم.
- قيل: هل يكون كذّاباً؟
- قال: لا...»[2].

ولذلك فالواجب على المسلم أن يكون صادقاً مُتوقّياً الكذب، وعلينا أن نتقبل ما يتحدث به عن نفسه أو يكتبه في شأنها على أنه حقيقة، لا نشكك فيها، ولا نقدح في صحتها، ولا نخدش في عدالته وأمانته وإنصافه؛ لأن المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه -كما جاء في الحديث[3]- حتى يظهر لنا كذبه ظهوراً بَيِّناً جليًّا لا يحتمل التوجيه، فإذا خالف كلامه الواقع أو

---

(1) أحمد بن حنبل: المسند: ٥/٥٥٢ رقم الحديث (٢٢٢٢٤) (مؤسسة قرطبة، القاهرة - مصر، د. ط. ت)، البيهقي: السنن الكبرى: ١٠/١٩٧ حديث رقم: ٢٠٦١٦، ورقم: (٢٠٦١٧)، (مكتبة دار الباز، السعودية - مكة المكرمة، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، د. ط. ت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

(2) محمد بن جعفر الخرائطي: مساوئ الأخلاق: ٦٣ حديث رقم (١٣١) (مكتبة عباس الباز، السعودية - مكة، د. ط. ت.). وراجع ماكتبه: الشيخ محمد الزرقاني: شرح الزرقاني: ٤/٥٢٦ (دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ت١٤١١هـ)، والشيخ سيد سابق: إسلامنا: ١٧٨-١٧٩ (دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، د. ط. ت.).

(3) ينظر الحديث: صحيح الإمام مسلم: ٤/١٩٨٦ حديث رقم: (٢٥٦٤) (صحيح مسلم، بمراجعة وترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، مصر - القاهرة،ط١،ت ١٤١٢هـ-١٩٩١م).

خالف فعله قوله؛ فلنا حينئذٍ تكذيبه. ونحكم على ما تركه من سيرة أو أخبار بأنها زائفة –إن ظهر كذبه في الجميع– أو مظنة الكذب والتحريف –إن ظهر لنا الكذب في بعضها وخفي بعضها– فمن اجترأ على الكذب مرّة كان جريئاً عليه مرّاتٍ ومرّات.

والثقة في الكاتب المسلم لا تعني التسليم المطلق لكل ما يقول، بل القارئ كَيِّسٌ فَطِنٌ يتثبَّت مما يقرأ أو يسمع وبخاصة ما يتصل من الكلام بالناس، وبعض الأمور المهمّة التي ينبني عليها تصور أو تقدير، أو يكون الكاتب فيها أهلاً للانحراف والزيغ عن الحق لشبهة معروفة عنه، أو منافسة مع من يحكي عنه أو معاداة له. واللّه قد أمرنا بالتثبت والتبين فقال: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [1].

غير أن كاتب السِّيرة الذَّاتية المسلم على الجملة –ولاسيما فيما يخصه من نسبٍ ودراسةٍ وولادةٍ ومشاهداتٍ وصعوباتٍ واجهته، وعقباتٍ تجاوزها ومكاسبَ حققها... إلخ– مُصَدَّقٌ ومُؤتمنٌ فيما يحكيه؛ لأنه المرجع الأقرب، ولأنّه مأمور بقول الحق، فإذا ما عاهد القارئ أو السامع على الصدق – كما يقع غالباً من كتاب السير – كان ذلك بحقه آكد وأوجب. وهذا خلافاً للذي يستمد وازعه الداخلي – في الغالب – من باعثه إلى الكتابة، ويُسَخِّر ما يصدر عنه لصالح هذا الباعث حتى تتحقق له غاياته ولو كان تحققها على حساب الحقيقة.

---

[1] سورة الحجرات: ٦.

وكان من سنّة النبي عليه الصلاة والسلام – وسُنَّته تشريع – أنه لا يأخذ بالقَرف (أي: التهمة) ولا يقبل قول أحد على أحد إلا بتثبُّتٍ وتَبيُّن. ينظر: المتقي الهندي: كنز العمال: ٨٣/٧ حديث رقم (٧٠٣) (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند – حيدر آباد الدكن، ط٢، ت ١٣٧٨هـ–١٩٥٩م).

ولكن على كاتب السيرة الذاتية المسلم أن يتبين الحدود التي أذن فيها الشارع بالمصارحة ونهى عن تجاوزها؛ فيوازن بين الجهر بالصدق وإظهار الخفي، وبين المحافظة على ستر اللّه الذي يستتر به المسلم، ويسأله تعالى سبوغه ودوامه عليه في الدنيا والآخرة؛ فمن الحق ما يرذل قوله، وتنبو الأُذن عن سماعه – كما يقول أحمد أمين[1]. ومن الصدق ما هو أقرب إلى الفضيحة. وليس مطلوبٌ من المسلم الذي عليه أن يصلح زلاّته فيما بينه وبين ربه فضحَ نفسه على رؤوس الأشهاد، أو أن يسجل إقراراً يساق بموجبه إلى القضاء. بل الإسلام ينكر ذلك ويمقته، ويراه إثماً كبيراً وفتنة أشدَّ من القتل؛ لأن فيه إيقاظاً للهاجع من الغرائز، وتسهيلاً للمنكر بتوضيح سُبله وأسباب التوصل إليه، وإشاعة للفواحش في المجتمع المسلم، وتشويهاً لاستقامة أهله ومروءاتهم، وفي ذلك تمهيد لأصحاب الرذائل للظهور برذائلهم. قال تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ وقولة تعالى :قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2]. وقال تبارك اسمه: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[3]. وقال تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ

---

[1] أحمد أمين: حياتي: ٤.

[2] سورة البقرة: الآيتان: ١٩١، ٢١٧.

[3] سورة النور: ١٩.

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ [1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح، وقد ستره اللَّه عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر اللَّه عنه»[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر اللَّه، فإنّه من يبدلنا صفحته نقم عليه كتاب اللَّه»[3].

وما تَقَدَّم من النصوص فيه تحريم شديد للجهر بما اقترفه الإنسان من الرذائل في حياته، لاسيما ما اتصل منها بالمنكرات المغلظ في تحريمها، أو الكبائر الموجبة للَّعن والطرد من رحمة اللَّه أو للحدود الشرعية كـ: شرب الخمر والزنا واللواط ولعب الميسر والربا وما شابهها...

أما بالنسبة للحديث عن الذّات، وتقرير صفاتها الطيبة، وذكر محاسنها وتسجيل مآثرها والإشارة إلى ما حققته من سبق وما اختصت به من أسباب التَّميُّز والفرادة في مجالٍ من المجالات، فأمر مباح في الأصل مادام لا يخرج عن الصدق لأنه لا دليل صريح على تحريمه. على أنّه قد يكون مندوباً إليه إذا قصد به الكاتب أو المتحدث حمد المتفضل تبارك اسمه، وشكره على توفيقه وامتنانه، وذكر ما به من النعمة اعترافاً بسابغ عطائه وجزيل هبته، لأمره تبارك وتعالى بذلك، فقال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

[1] سورة النساء: ١٤٨.

[2] صحيح البخاري: ٥٠١/١٠ رقم (٦٠٦٩). (بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني).

[3] الإمام مالك بن أنس: الموطأ: ٤٣/٣ (بشرح تنوير الحوالك للسيوطي، دار الندوة الجديدة، لبنان – بيروت، د. ط. ت.).

﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [1] وقال: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [2].

ويشترط في جواز الحديث عن النفس ألاّ يُفْضِي إلى منكر كالغرور والعجب بالنفس والكذب. فالحديث عن الذات مزلق خطير يُفقد الكاتب التحكم في نصاب الحقيقة؛ فتضطرب بين يديه الأمور، وتستأثر الرغبة في الاستكثار من الحسنات والتزيد من المآثر والمبالغة في بهرجة النفس وتلميعها بلُبّه وتأخذه سكْرَةُ الأمجاد من عالم الواقع إلى لذيذ الأحلام والأوهام، وينسى أنه مسؤول أمام اللّه ومؤتمن على كل كلمة يقولها أو يكتبها. وقد جاء النّهي الإلهي الصريح عن التّمدح بغير الحق، والثناء على النفس بغير ما تستحقه، فقال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [3] ويقول تبارك وتعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [4].

كما غلّظ الرسول ﷺ في الإقدام على ذلك، روت أسماء رضي اللّه عنها فقالت: إن امرأة قالت: يا رسول اللّه إن لي ضَرَّةً فهل علي جُناح أن أتشبَّع[5] من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال النبي ﷺ: «المتشبع بما لم يُعْطَ كلابِسِ ثوبَيْ زُورٍ»[6].

---

[1] سورة البقرة: ٤٧.

[2] سورة الضحى: ١١.

[3] سورة الصف: ٢-٣.

[4] سورة آل عمران: ١٨٨.

[5] أي أنها تريد أن تُظْهِرَ أنّها أرفع قدراً عند زوجها لتغيظ ضرّتها.

[6] صحيح مسلم: ١٦٨١/٣ حديث رقم (١٢٧)، والمتشبع هو: المظهر للشبع وليس

وما جاء في النَّهي عن تزكية النفس في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [1]، **وقوله تعالى** قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ [2] **فالمراد بها تزكية النفس والشهادة لها بالإيمان والأعمال الدينية الصالحة والمكانة عند الخالق تبارك وتعالى، والمنزلة في الآخرة، كما يفهم من سياق الآيتين الكريمتين اللتين نهتا عن ذلك.**

وقد ثبت عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأوّل من ينشق عنه القبر، وأوّل شافعٍ، وأول مُشَفَّع»[3]. وكان عليه الصلاة والسلام يحضر مجالس الوفود ويستمع إلى مفاخراتها فلا ينكر عليهم، وربما أمر أصحابه بأن يلتمسوا خطيباً يجيب خطيب القوم وشاعراً يفاخر شاعرهم[4]. ولم يحبس كثير من سلف الأمة وفقهائها أقلامهم عن الثناء

بشبعان. وثوبي زور: صاحب زور، والمراد الذي يزوِّر على الناس ويكذب عليهم، ويدعي أن له فضيلة ليست له ليغتر به الناس.

[1] سورة النساء: ٤٩-٥٠.

[2] سورة النجم: ٣٢.

[3] صحيح مسلم: ١٧٨٢/٤ حديث رقم (٢٢٧٨)، ومسند الإمام أحمد: ٥٤٠/٢، ٢/٣، رقم الحديث (١٠٩٨٤) و(١١٠٠٠)، وصحيح ابن حبان: ٣٩٢/٤، ٣٩٨ رقم الحديث، (٦٢٤٢)، (٦٤٧٥)،(٦٤٧٨). (تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٢، ت١٤١٤هـ -١٩٩٣م)

[4] يراجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢٩٣/١-٢٩٥ (الطبقات الكبرى، دار الفكر، لبنان – بيروت د. ط. ت.) وديوان حسان بن ثابت: ٢٩٩-٣٠٨. (بشرح عبدالرحمن البرقوقي:

على أنفسهم بالحق، حين ألمحوا إلى بعض تجاربهم الروحية والعملية وكفاحهم في تحصيل العلم وتحقيق مسائله كالأئمة: الغزالي[١] والسيوطي[٢] وابن حزم الظاهري[٣] وابن الجوزي[٤] -رحمهم اللَّه جميعاً- مما يدل على أن في الأمر رخصة وسعة.

ويحسن التنبيه إلى أنّه ليس من الكذب مخالفة الواقع غلطاً أو نسياناً أو اختلاطاً كتحريف أسماء الأشخاص والمواقع أو تبديلها أو الخلط بين الأزمان وبعض الأحداث، لأنَّه من خداع الذّاكرة الذي لا يسلم منه أحد. وليس من الكذب أيضاً ما صدر عن جزم واعتقاد بصدق ما يقوله، كأن يقول: وقع كذا وكذا لأجل كذا وكذا، لأنه لم يُحدِّث بالكذب، ولكن حدَّث بالصدق الذي يعتقده أو يغلب على ظنه صحته، والصدق شيء نسبي. ولو جاز لنا وصف الوهم والغلط والخطأ بـ: الكذب؛ لجاز لنا وصف القاضي العادل الذي يحكم بين اثنين فيقضي بمال أحدهما أو متاعه لصاحبه بناء على ما سمعه من شهود

دار الكتاب العربي، لبنان – بيروت، د. ط، ت ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م).

[١] يراجع كتابه: المنقذ من الضلال. (تحقيق: محمد أبو العُلا ومحمد جابر، مكتبة الجندي، القاهرة، ١٩٧٣م).

[٢] يراجع كتابه: التحدث بنعمة اللَّه. (تحقيق إليزابيث ماري، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، د. ت.).

[٣] يراجع كتابه: طوق الحمامة. (تحقيق: المحامي فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، لبنان – بيروت، ط١، ت ١٩٩٢م).

[٤] يراجع كتابه: صيد الخاطر (تحقيق وتعليق: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دار المنارة، السعودية – جدّة، ت ١٤١٢هـ-١٩٩١م، وكتابه: لفتة الكبد في نصيحة الولد، دار القاسم للنشر، السعوديّة – الرياض، ط٢، ت ١٤١٨هـ).

الزور الذين لم يطلع على كذبهم بالظلم والعدوان، وهذا لا يكون إلا مع القصد والتعمد[1]. وكذلك الكذب لا يطلق إلا مع تعمّد الإساءة أو التضليل أو التغيير.

وعلى الكاتب أن يتحقق فيما ينقله أو يحكيه عن غيره، وأن يكون دقيقاً في نسبة الأقوال وتوثيق المروي، فيميّز ما رآه أو ما سمعه أو وقف على تفصيلاته بنفسه، مما تناهى إليه خبره عن غير معاينة أو سماع مباشر؛ حتى لا يُؤْخذ بجريرة غيره، فيُرْمى بالكذب وهو منه بريء؛ لأنه مأمور ألا يُعرِّض نفسه للشبهات[2].

وحين يريد أن يصدر حكماً على شخصية معروفة اتصل بها، فعليه أن يتثبت من الأخبار التي رويت له عنها، ولا يحكي عنها شيئاً يُضِرُّ بها عند السامع أو القارئ إلا بالحق. وعليه ألاّ يمدح أحداً إلا بما فيه ولا يظلمه فيرميه ببهتان، ولا يغض عن جانب لحساب جانب، ولا يجامل قريباً لقرابته ولا يرفعه فوق منزلته، ولا يذم عدوّاً ولا يبخسه حقه ولو كان شيئاً يسيراً، فالإنصاف والعدل مطلوب ومأمور به مع الجميع. وقد قررت الآيات الكريمات هذا المبدأ الإسلامي العظيم من مثل: قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [3] قَالَ

---

[1] قال رسول اللّه ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله، فإنما أقطع له قطعةً من النار، فلا يأخذها». الحديث عند الإمام مالك: الموطأ: ١٩٧/٢ (بشرح تنوير الحوالك للسيوطي).

[2] قال رسول اللّه ﷺ في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير: «الحلالُ بيّن والحرام بيّنٌ، وبينهما مشبّهات، لايعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه» رواه الإمام البخاري: ١٥٣/١ حديث رقم (٥٢)، (شرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني).

[3] سورة النحل: ٩٠.

تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [1]، قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾، قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الرَّجِيمِ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [2]

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [3]، قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ

---

[1] سورة النساء: ٥٨.

[2] سورة الحجرات: ٩. وينظر أيضاً: سورة النساء: ١٣٥ وسورة المائدة: ٤٢ وسورة الأعراف: ٢٩ وسورة الرحمن: ٩ وسورة الحديد: ٢٥.

[3] سورة الأنعام: ١٥٢.

الرَّحِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1].

وقمينٌ بمن كان ذلك سَمْتَه ومنهجَه أن يكون الحقُّ بعينه مطلوبَه وغايتَه. فلا يتلوَّن له بتلوّن الدّوافع، ولا يتحرّف بتحرّف الواقع والمكاسب. وقمينٌ أيضاً بمن كان وازعه بين جنبيه يحاسبه من داخله بأن تكون سيرته الذاتية -إذا رزق أصالة التعبير وجودة التصوير وحسن التحليل والتفسير- من أصدق الفنون والآداب وأقربها إلى الواقع وأقواها أثراً، لأنها حينئذٍ تصبح بحق ملتقى للصدق التاريخي بالصدق الفني الأصيل.

ويبقى أن تطرح الدّراسة سؤالاً مهمًّا عن مدى قدرة كاتب السيرة الذّاتية المسلم على الحديث عن الجوانب المحذورة من حياته التي لا يتحدث الناس عنها غالبًا!! هل قدّم نموذجًا خاصًّا به لهذا النوع من الحديث الصريح؟! هذا ما تحاول الدّراسة الإجابة عنه في المبحث الثالث.

المبحث الثالث:

الاعتراف / المكاشفة

الاعتراف مظهر من أبلغ مظاهر الصراحة في أدب السيرة الذاتية، يتخطى فيه الكاتب حواجز الصمت، فيفضي بما يستره الناس عادة سواءً من الأخلاق أو السلوك. ولن يكون الاعتراف اعترافاً في رأي بعضهم إلا إذا كان اعترافاً بأمر يغلب على الناس إنكاره وكتمانه. فلا يفهمون من الاعتراف إلا أنّه إعلان لخبيئة في النفس تشين صاحبها وتدعو إلى إخفائها...[2].

---

[1] سورة المائدة: ٨.

[2] يراجع: العقاد: أنا: ٢٠٩، والعقاد حين يعرض هذا التصور عند "بعضهم" -كما يقول- إنما يعرض له عرض من يَرُدُّه، لأنه يرى أن الاعتراف بالخصائص النفسية التي تدل الناس بعضهم على بعض أولى وأجدر (ينظر: أنا: ٢١٠)، وهو رأي صائب نوافقه عليه.

ولكن لفظة (الاعتراف) تحت وطأة النموذج (الاعترافي) الغربي والمفهوم النقدي الغربي اتخذت منحى خاصًّا إذ ارتبطت بشكل مباشر بالجهر بالمخازي والفضائح – لاسيما الجنسية منها – بكل صلافة وجلافة. مع أن الكلمة نفسها واسعة شاملة تشمل هذا النوع وسواه من أوجه النقص الذي يسعى الفرد إلى ستره وحفظه بعيداً عن الأنظار. بل إن الأستاذ أحمد أمين – رحمه اللَّه – يراها – أي لفظة الاعتراف – أكثر اتساعاً وشمولاً، إذ يُفترض أن تشمل الحديث عن الفضائل والحسنات من غير تحرج أو مبالغة في التواضع[1].

التعري في السيرة الذاتية:

ويؤكد نقاد أدب السيرة الذّاتية الغربيون وجوبَ التعري التَّام عند كتابة السيرة، ويرونه رُكْناً مُهمًّا من الأركان التي تقوم السيرة الناجحة والممتعة عليها[2]. وقد انساق أكثر نقادنا من العرب وراء هذه الرؤية دون تمحيص وتفكر، أو مراعاةٍ لما نشأت عليه مجتمعاتنا العربية والإسلامية من قيم دينية وأخلاقية سامية وتقاليد اجتماعية محافظة تميزنا من غيرنا من الأدباء والنقاد والمجتمعات في الغرب. ونستطيع أن نتبين هذه النزعة المتغرِّبَة عند ناقدٍ كبير هو أنور المعدّاوي إذ كتب يقول:

«حسبك أن كُتاب الاعتراف يقدمون إلى الناس صفحات من سجل الحياة سُطِّرتْ بمداد الصراحة والأمانة والصدق. صفحات عارية لاتكاد تتشح بغلالة واحدة من غلائل النفاق الاجتماعي، وتملق عواطف الجماهير. ولعمري إن الكاتب الذي يعرض أمام الناس فترة من فترات حياته بما حفلتْ من خير

---

[1] ينظر: فيض الخاطر: ١٩٦/٩.

[2] ينظر: أندريه موروا: أوجه السيرة: ١٠٩-١٢٧ ود. رودلف زلهايم: خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية: ٢٧-٣٤ (مقالة – مجلة مجمع اللغة العربية).

وشرّ، من فضيلة ورذيلة، من لذّة وألم، دون أن يخشى في ذلك نقداً أو لوماً أو زلزلة لمكانته الأدبية والاجتماعية. هذا الكاتب في رأينا ورأي الحق رجل قوي جدير باحترام الأقوياء.

إن هناك كُتَّاباً يتظاهرون بحب الخير والتمسك بالفضيلة، وهم غارقون في حمأة الموبقات، فهل نستطيع أن نصف أدبهم بأنّه أدب قوّة؟! كلا... ولانستطيع أن نرفع من قيمة هذا الأدب، إذا ماقسناه بمقياس الفن الصادق، مقياس صدق التعبير عن الحياة ؛ لأنّه أدب يعبث بالحقائق ويشوّه الوقائع، ويكذب على الحياة والناس»[1].

ويعلل المعدّاوي -بتحامل شديد- قلّةَ الاتجاه إلى الاعتراف وتعرية الذّات عند كُتَّابنا بما نعيشه في مجتمعاتنا الشرقية من (تكتم) على الأسرار، ورغبة في نشر الفضائل ولو كانت لا تُعبر عن حياتنا الواقعية ولا تعطي صورة صحيحة لها[2].

ويوافق محمود تَيمور المعَدَّاويَّ، وهو يجمل أسباب عدم ازدهار فن السيرة الذاتية -بمفهومها الغربي بطبيعة الحال- في البيئة الشرقية ؛ فيقول: «نحن الشرقيين نحيا في دنيانا هذه، وعلى أخلاقنا وسلوكنا قناع غليظ، قَلّما نقول ما نعتقد، وقلّما نصارح بما نجد، وقلّما نعبرُ عمّا تطويه السرائر.. كلنا متستر [يداجي][3] ويوارب، ويظهر على غير حقيقته.. منّا من يتخذ مُسوح الأخيار والزّهاد، ويبدو في سمت المثاليين الأبرار، وربّما كتم أمر نفسه عن نفسه خداعاً عن نفسه لنفسه، وفراراً بوجهه عن وجهه، فنحن أمام ضعفنا الإنساني ضعفاء عن أن نعترف به، نجاهد في أن نظهر في ثوب البراءة

---

[1] نماذج فنية من الأدب والنقد: ١٢٠ (مكتبة مصر، مصر – الفجالة، د. ط. ت.).

[2] السابق: ١١٨-١١٩.

[3] في الأصل: (يهاجي) وأظنه خطأ مطبعيًا.

والطُّهر، على رؤوسنا أكاليل من بطولة الفضيلة لكي نستطيع أن نلاثم ذلك المجتمع المنافق الكذوب الذي نعيش فيه»[1].

والباحث يستطيع أن يفهم هذه الدعوة إلى التعري بالاعتراف الفاضح لدى الغربيين كُتّاباً ونُقّاداً، بصفتها -فيما يُعتقد- امتداداً للتصور الكنسي للتطهّر من الشوائب والأخطاء التي تعلق بالإنسان خلال رحلته في الحياة، تسرَّبَ إلى الفكر الأدبي. إذ تُلجئ التعاليم الكنسية معتقدها عند الحاجة إلى التخفف من أعباء الحياة والتخلص من الأدران المعنوية إلى التعري التام على كرسي الاعتراف أمام القسيس، إذ يبوح بكل ماقارفه من ذنب أو خطيئة، أو ارتكبه بحق الإنسانية أو الكون. وبمقدار ماتتسم به اعترافاته من جرأة وشمول واستقصاء؛ تتسع صكوك الغفران التي ينالها لتحمل عنه أوزاره؛ فيعود وقد دفع عن نفسه تأنيب الضمير، وجلب لها الراحة والطمأنينة. وكيف لايشعر بذلك وقد استطاع أن يتغلب على نفسه ويقتطع صكاً برضا الرب وتجاوزه عما اكتسبه من الآثام !!

والذي أعتقده أن العقيدة النصرانية الصحيحة مُبَرَّأة من عقيدة الاعتراف[2]؛ لأن الدين الصحيح يسعى إلى توثيق الصلة بين العبد وخالقه دون وساطة ولا ترجمان. ويظهر لي -أيضاً- أن عقيدة الاعتراف فكرة دخيلة على النصرانية، اُتخذت وسيلة من وسائل الكنيسة للسيطرة على المؤسسات العامّة في المجتمع وتوجيهها من خلال إحكام قبضتها على

---

(1) نقلاً عن علي عبده بركات: روّاد السيرة الذّاتية من إفرنج وعرب: ١٦٤ (مقالة – مجلة العربي).

(2) تحدث الشيخ: محمد أبو زهرة عن: مبدأ الاعتراف في العقيدة النصرانية وصكوك الغفران، راجع كتابه: محاضرات في النصرانية: ٢٠٨-٢١١، ٢٢٥-٢٢٧ (الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية – الرياض، ط٤، ١٤٠٤هـ).

الأفراد ومصايرهم بما تعرفه عنهم من أسرار يشينهم ويؤلمهم أشدّ الألم ظهورها.

ولمّا كانت المجتمعات الغربية تعيش في حضارتها المادّية ألواناً من الإباحيّة الغرائزيّة والتفكك الأسري، وضعف الوازع الدّيني، انساقت وراء المتع والملاذ، وحين يأتي أحدهم ليكتب سيرته الذّاتية، ويجلس مع نفسه يشعر بوخز الضمير وتأنيبه على كل مافعله في أيامه الخالية. لذلك يتجه دون شعور إلى تعرية ذاته للشمس ليتطهر بأشعتها الحارقة اللاذعة من أدرانه الماديّة والمعنويّة.

ولكن الذي لا أستطيع فهمه ولا تقبله تلك الدعوات المكشوفة من قبل بعض نقادنا وأدبائنا إلى احتذاء النموذج الغربي في الاعتراف، كما لا أستطيع فهم تلك النزعة الغريبة إلى المقارنة بينه وبين مايشيع من ضروب الاعتراف المحافظ في سيرنا قديماً وحديثاً.

نموذج مغاير وضوابطه :

وقد فطن بعض الباحثين إلى ملمح مهم في هذا الصدد هو: أن ثمة فارقاً مهماً بين الأديب المسلم وغير المسلم في مجال السيرة الذاتية لم يُعْنَ ببيانه مؤرخو فن السيرة ونُقادها، إذ ألمح إلى ارتباطه بمسألة الباعث الفني لكتابة السيرة الذاتية ؛ باعتبارها المحرك الأساس للكتابة[1]، ثم استثني واحداً من كتابها وليس من نُقَادها، وهو: أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري.

---

(١) ينظر: عبدالله الحيدري: السيرة الذّاتيّة في الأدب السعودي: ٣٩٦ وما بعدها، وفي تباريح ابن عقيل الظاهري.. شجاعة في الاعتراف وتنظير موفق في فن السيرة: ٨٤ (مقالة – المجلّة العربية، عدد٢٣٧، السنة ٢١، شوال١٤١٧هـ – فبراير/مارس ١٩٩٧م).

أما أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري فهو إلى أنه أديب وناقد؛ فقيه مشارك واسع الاطلاع يحمل شهادة عاليةً في العلم الشرعي[1].ويرى أبو عبدالرحمن بن عقيل في صدر: (تباريح التباريح) أن: «الاعترافات لها تياران في الشرق والغرب:

– تيار عند الشرقيين كُلّه فاضل لأن سير أهله فاضلة كحديث ابن تيمية عن نفسه وصراعه العلمي. وقد تكون اعترافاتٌ لاتتعدى اللمم وعما قبل الحلم، كما في طوق الحمامة لابن حزم. وفي نصاب ذلك اعترافات الصوفيّة والزّهاد في حكاياتهم عن تجاربهم النابعة عن فيوضاتٍ إلهية.

– وتيار عند الغربيين يجهر بالسوء ويتبجح بالفضائح ويحكي ماينـدى له الجبين. وأقبح وأحدث ما قرأته من اعترافاتهم اعتراف برتراند رسل في سيرته الذّاتية بأنّه كان يقلب وجهات النظر مع خادمه، وذلك كناية عن تبادل عمل قبيح»[2].

وينتهي ابن عقيل إلى أنه: «يُفترض في كاتب السيرة الذّاتية أن ينقل الحقيقة عن حياته، والواقع الذاتي لنفسه وبيئته من خلال الأحداث الخارجية... إلا أن هذا المطلب عسير جدّاً قد يكون مُتعذّراً –وذلك أكثر من مُتَعَسِّر– عند الشرقي المسلم الذي أوصاه رَبّه بالستر على نفسه إذا ضعف، وأن يطلب الستر من ربّه في حياته ويوم يقوم الأشهاد»[3].

ولذلك لا يودّ أبو عبدالرحمن بن عقيل أن يكون إمَّعةً ينساق وراء كل صارخ، ولكنّه يُوطِّن نفسه على المضي فيما لايمس دينه من سُبل القول

---

[1] ينظر: تباريح التباريح: ١٢٥–١٢٦ (دار الصحوة للنشر والتوزيع، السعودية – الرياض، ط١، ت١٤١٢هـ).

[2] السابق: ٦–٧.

[3] السابق: ٧.

والكتابة المشروعة في الحديث عن الذّات يقول: «ولقد اجتهدت في التباريح أن أسجل ذكرياتي بأمانة إلا مالايحل الجهر به، لأن اللّه لايحب الجهر بالسوء، ولأن اعترافات النصارى ليست من ديننا»[1].

وإذا كان المستشرق الألماني الدكتور (رودلف زلهايم) يعترف بما وصل إليه الغربيون من انتكاسة أخلاقية في مجال الحديث عن النَّفس، ويؤكد في الوقت ذاته صعوبة التخلي عن ذلك المَنْحَى لطبيعة الشعب الغربي قائلاً: «إننا ليصعب علينا -نحن الغربيين- أن نتصور أنفسنا في موقف المسلمين هذا، فلقد فقدنا في عصرنا الحاضر هذا الحسَّ المرهف، وتفشَّت لدينا غوغائية لاتُقدِّر ولاترعى حرمة الأدب والاحتشام والحياء»[2] فإنني أرى أن السيرة الذاتية لا يمكن أن تكون أدباً معبراً عن قضايا وحياة الأديب المسلم إلا إذا كانت فَنّاً رفيعاً يُرضي المشاعر النبيلة، ويرتفع بالأحاسيس البشرية إلى مستوى الطهر الإنساني. وليس معنى ذلك أننا نفترض المثالية في كل كاتب يتحدث عن نفسه، بل معناه أننا نفترض فيه أن يكون قاضياً عادلاً، يرى الفضائل فيحبذها ويشيد بها، ويرى الرذائل فيعترف بخطئها، ويشرئب إلى حياة كريمة تتجنبها، وإذ ذاك يكون صاحب السيرة الذاتية فنّاناً ينشد ارتقاء البشريّة، ويحلم بازدهار السعادة الشاملة للفرد والمجتمع[3].

ولذلك فإن الانسياق أو (الانقياد) وراء الدعوة إلى التعري الخالص على إطلاقه أمر مرفوض، وينبغي أن يراجع نقادنا وأدباؤنا الموقف منه، ليس في

---

[1] السابق: ٤.

[2] خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية: ٢٩ (مقالة – مجلة مجمع اللغة العربية).

[3] ينظر: د. محمد رجب البيومي: منهج الأدب الإسلامي في السيرة الذّاتية: ٧ (مقالة – مجلة الأدب الإسلامي، عدد ٣، م/١، محرم/صفر/ربيع الأول ١٤١٥هـ).

السيرة الذاتية وحدها بل وفي الرواية والقصة التي تموج بالمشاهد المُخلّة بأمانة الكلمة الطيبة تحت أي شعار كان ولو كان الواقعية والحريّة التعبيريَّة.

إن الباحث لا ينتظر من كاتب السيرة الذاتية المسلم اعترافًا على الطريقة الغربية؛ لأن هنالك فرقاً بيّناً بين الجرأة والصراحة وبين التعري الفاضح والوقاحة. فكيف ننتظر منه اعترافات أدبية ساخنة على الطريقة الغربية المبتذلة؟! إلا أن يكون (الاعتراف) بمفهومه الغربي مطلباً في حدّ ذاته، ولو اختلفت بواعث الكتابة، ولو كان الاعتراف كذبًا وادعاءً محضًا، وهذا غير صحيح!! ومادام هذا واقع استعمال (الاعتراف/الاعترافات) فإن الباحث يتحفظ بشأن استعمال هذا المصطلح (الاعتراف/الاعترافات)، ويتجه نحو: التماس نموذج مغاير للاعتراف: تصنعه الثقافة، وتجود به السير التراثية والحديثة في الأدب الملتزم بالقيم الأخلاقية والدينية، وتحديد ضابط يُسهل ويسوغ انتقاءه، ويعين على تحديده وتمييزه، ومن ثَمَّ تتيسر قراءته ومعالجته[1]. والضابط فيما أتصور لابد أن يقام على ثلاثة أركان:

الأوّل: أن يكون مظهراً من مظاهر العجز والضعف والنقص.

الثاني: الصراحة والجُرأة (أي أنه يتجاوز الحديث العادي عن النفس).

الثالث: الخروج عن العرف والإلف.

ويتحدد الخروج عن العرف والإلف بالاعتماد على المفاهيم الاجتماعية ومواضعات الناس، وذلك يختلف باختلاف:

---

[1] لكونه يختلف عن الاعتراف بمفهومه الغربي في فن السيرة الذاتية، ولكونه يختلف عنه بالنظر إلى كتابات كثير من السيريين العرب. والبحث عن هذا النموذج، ودراسته، والتنظير له ليس أمراً مقحماً، بل هو من صميم مهامّ الدراسة ؛ فالنموذج موجود بسمته المغاير، ثم إن في الكشف عنه خطوة قويّة لمعرفة رؤية أدب وأدباء.

- المجتمع والبيئة.

- المكانة التي يتبوَّأها المعترف: حديثاً أو كتابةً.

وهذا يعني أن مفهوم الاعتراف مفهوم متحرك ولا يقاس بنموذج معين، بل ينظر إليه من خلال سياقات اجتماعية وذاتية مختلفة، ومن خلالها جميعًا يمكن رصده وتعيينه. فما يُنظر إليه في بعض المجتمعات على أنّه من المظاهر اليومية العادية، أو من ممارسة الحريّة الفردية ؛ فإن الحديث عنه في مجتمع محافظ كالمملكة العربية السعودية قد يُعدّ اعترافاً صريحاً جريئاً بشيء يرى المجتمع وجوب ستره وكتمانه. كأن يقول كاتب بمنزلة الشيخ علي الطنطاوي مثلاً عن نفسه: إنه حضر حفلات غنائية شعبية، أو إنه في فترة من الفترات داوم على متابعة العروض السينمائية، أو كان يغشى المقاهي في سوريا ومصر ولبنان. فهذا لو أفضى به شخص من خارج المملكة العربية السعودية لما وصفناه بأنّه اعترافٌ لأنه شيء مألوف ومعروف، ولكن مجتمعنا المحافظ بالمملكة ينكر ذلك ويراه خروجاً على مواضعاته.

ومن المفارقات التي تؤكد أهمية العرف الاجتماعي في تصنيف الحديث إلى اعتراف أو إلى غيره، أن المقاهي في بعض البيئات العربية كمصر مثلاً يكون غثيانها شيئاً طبيعيًّا تماماً، بل إنه قد يستدل به على المنزلة الأدبية الرفيعة، وعلوّ الكعب في الفن أو الأدب أو المعرفة، لأنها – ولاسيما المقاهي المشهورة – أشبه ما تكون بالمنتدى الأدبي الذي يحضره كبار الأدباء وأصحاب المكانة في المجتمع إذ يتجاذب فيه الجميع أطراف الحديث بشيء من (الانبساط) والحُرِّية. فإذا كان المعترف ذا وجاهة في مجتمعه أو منزلة خاصة لاسيما حين ترتبط هذه الوجاهة بأسباب الوقار والالتزام الديني كأن يكون عالماً شرعيًّا، أو واعظاً أو خطيباً أو مفكراً أو مربِّياً أو مسئولاً ؛ ضاقت أمامه فرص البوح بالحديث العادي، وقد تُعدّ بعض أحاديثه التي تُتَلَقَّى من غيره على أنها كلامٌ

عادي لا يثير أية مشاعر بالسخط أو عدم الرضا، قد تعد من قبيل الاعتراف، فما يُقبل من المحكوم قد لايقبل من الحاكم، وماقد يأتيه العامي العادي قد يشين الخاصي والعالم غشيانه وفعله والنسبة إليه. فما ذكره ابن حزم الظاهري – رحمه الله – عن تجربته مع الحب ومعاناته الهجر في كتابه (طوق الحمامة) يعد من قبيل الاعتراف على الرغم من أنّه ليس فيه جهر بكبيرة أو منكر شنيع[1]، وذلك لمكانة ابن حزم فهو عالم وفقيه ورجل دولة، وأكبر دليل على ذلك أنّه قد بدأ رسالته معتذراً واختتمها بباب في (قبح المعصية) و(فضائل التعفف) ؛ ليبرئ ساحته من الظن السيئ[2]، ولو ألفه غيره كأبي نواس، أبي العيناء، أو ابن سعيد الغرناطي، أو ابن هانئ الأندلسي، لما عددناه من قبيل الاعتراف والحديث الساخن الصريح، ولانتظرنا من مؤلفه شيئًا أبعد لما استقر في نفوسنا من سمته وحياته. وكذلك ابن الجوزي رحمه اللّه فقد عرض لأمور يمكن أن نَعُدّها من اعترافاته ؛ لأنها قدمت لنا جانباً من جوانب الضعف فيه، لم نعتد سماعها أو قراءتها من فقيه وواعظ مثله[3].

ومثل ذلك حديث أحمد أمين وهو الرجل الوقور الرزين عن المشاجرة التي حصلت بينه وبين سيدة أثناء ركوبه عربة (سوارس) وكان قد مسها

---

(1) الكتاب بأكمله يصلح للتمثيل، ولكن تنظر الأبواب التالية: (من أحب صفة لم يستحسن بعدها ما يخالفها)، (البين)، (المساعد من الأخوان)، (السلو)، (الوصل)، (الهجر).

(2) ينظر طوق الحمامة: ٥٣–٥٤، ٢٦٨، ٣٠٢ وعقب قائلاً في خاتمة كتابه: (وأنا أعلم أنه سينكر عليّ بعض المتعصبين... تأليفي لمثل هذا، ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أُحل لأحد أن يَظن فيّ غير ماقصدته...) ص٣٢٢ (تحقيق المحامي فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، لبنان – بيروت، ط١، ت١٩٩٢م).

(3) ينظر: صيد الخاطر: في مواضع متفرّقة مثلاً: ٧٧–٧٨، ١٣٩، ١٧٤–١٧٥، ١٨٣–١٨٤، ١٨٧–١٨٨، ١٩٨. (تحقيق وتعليق: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دار المنارة، السعودية – جدة – ط٥، ت١٤١٢هـ – ١٩٩١م).

بجسده دون أن يشعر[١]. وحُبّه لابنة جاره وهو صبي في نحو الخامسة عشرة[٢]، ثم تعلقه البائس بمدرسته الإنجليزية[٣]، ومايذكره من تردده في بعض الأحيان على صالة (منيرة المهديّة) لسماع غنائها ومشاهدة مسرحياتها[٤]... إلخ. ومن هذا القبيل اعترافات الشيخ أبي عبدالرحمن بن عقيل بشغفه بالموسيقى واستماعه للغناء والانهماك في الفن[٥]، وكثرة السهر والسمر في ليالي رمضان[٦]، وإدامة شرب الدخان[٧]. فهذا وأمثاله من الحديث قد لايثير في النفس شيئاً من الاستغراب والاستنكار، ولكنّه حين يصدر من مثل هؤلاء الأعلام – لما يتبوّأونه من مكانة وما يتصفون به من سمات – يأتي في حرارة الاعتراف ؛ لأنهم يكابدون في سبيل البوح به كثيراً من المشقة سواء كان ذلك بالنسبة إليهم أو إلى مجتمعهم الذي يتقلبون فيه. «قد يكون شأن التدخين غير ذي بال عند كثير من الناس في هذا الزمان، فلا يبالون به. بل إن بعض القرّاء قد لا يرون في حكاية ابن عقيل لهذه التجربة أي شجاعة، لكن العارفين بمكانة أبي عبدالرحمن في مجتمعه، ومؤهله التعليمي، وإسهاماته الدينية في الإذاعة وغيرها سيدركون حتماً أنه كان

---

[١] ينظر: حياتي: ١٧٤–١٧٦.

[٢] ينظر: السابق: ١٨٧.

[٣] ينظر: السابق: ١٥٩–١٦٠، ١٨٧–١٨٨.

[٤] ينظر: السابق: ١٦٨.

[٥] ينظر: تباريح التباريح: ٧٨، ١٢٠.

[٦] السابق: ١٠٥.

[٧] ينظر: شيء من التباريح: ١١٣–١١٩ (دار ابن حزم، السعودية – الرياض، ط١، ت١٤١٥هـ).

جريئاً وصريحاً في روايته لهذه التجربة الشاقة، التي خرج منها وللّه الحمد منتصراً»[1].

النموذج بين مصطلحي: الاعتراف والمكاشفة، ولماذا؟!

أودّ أن أبيّن للقارئ الكريم عدم ارتياحي لاستعمال مصطلح (اعتراف/اعترافات – *CONFESSIONS / CONFESSION*) في دراسة النماذج الشرقية؛ لأنه وإن كان المصطلح مشتقاً من مادّة عربية فصيحة صحيحة، فقد اكتسب باستعماله مقابلاً لـ (*CONFESSION*) بُعداً (فضائحيًّا)[2] وارتبط استخدامه – في الغالب – بالعلاقات الجنسية غير المشروعة، أو المغامرات العاطفية، أو الانحرافات السلوكية والنفسية في أحط صورها. وهو بهذا المفهوم: مصطلح صيغ تحت وطأة المعتقد الكنسي، وتربى تصوره الذهني والفلسفي والأدبي على يدي نموذج غربي وافد من خارج أحضان المجتمع المسلم، والذائقه العربية الخالصة.

وأعتقد أن البديل الأمثل الذي ترشحه الدراسة لقراءة النموذج الاعترافي المشار إليه سابقًا، وهو نموذج يختلف في تجاوزه للدين والأخلاق، والمألوف الاجتماعي، هو: لفظة (مكاشفة / مكاشفات) لخمسة أسباب، هي:

١. عربيّة الكلمة وفصاحتها، فهي مصدر من الفعل (كَاشَفَ) بمعنى: أفضى بالشيء،وأزال عنه مايستره[3].

---

(١) عبدالله الحيدري: في تباريح ابن عقيل الظاهري.. شجاعة في الاعتراف وتنظير موفق في فن السيرة: ٨٤ وما بعدها (مقالة – المجلّة العربية).

(٢) القياس أن تكون النسبة إلى المفرد، ولكن قصد الجمع هنا وأجري مجرى العلم.

(٣) ينظر: مادة (كشف): الفيروزآبادي: القاموس المحيط: ٤/٥٥ – ٥٦(بترتيب الزاوي)، وابن منظور: لسان العرب: ٩/٣٠٠، وجبران مسعود: الرائد: ٢/١٢١٨، ١٢٤٢ (دار العلم للملايين، لبنان – بيروت، ط٤، ت١٩٨١م)، المعجم الوجيز: ٥٣٥.

وفي الأثر: (لو تكاشفتم ماتدافنتم)[1]، قيل في معناه: لو انكشف عيب بعضكم لبعض. قال المبرد وابن الجزري: أي: لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييع جنازته ودفنه[2]. ومن المعنى الصحيح فيه[3]: لو أفضى بعضكم إلى بعض بما وَجَدَ في نفسه عليه؛ لما حقد أحدٌ على أخيه، ولا وجد في نفسه عليه.

٢. قرب المعنى اللغوي من المعنى الاصطلاحي.

٣. المصطلح بكر – على الأقل في حقل الدّراسات النقدية – يسهل تبني إطاره الفلسفي بما يوافق خصوصية الإبداع العربي. ويكون استعماله بدون هالات مشوَّهة أو اضطراب يفضي إلى الخطأ أو الخلط[4].

---

(١) جاء الأثر مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وليس كذلك، ولعله من كلام الحسن البصري، يُراجع: ابن قتيبة: عيون الأخبار:٢/ ٣٧٢ (تحقيق د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت، د.ط.ت) ابن الجوزي: غريب الحديث: ٢/٢٩١(تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت، ط١، ت١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، وابن الجزري: النهاية في غريب الأثر: ١٧٦/٤ (تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، دار المكتبة العلمية، لبنان- بيروت، ط١، ت١٣٩٩هـ-١٩٧٩م).

(٢) ينظر: ابن الجوزي: غريب الحديث: ٢٩١/٢، وابن الجزري: النهاية في غريب الأثر: ١٧٦/٤.

(٣) نبهني إلى هذا الملمح اللطيف الدكتور محمود إسماعيل عمار، فله الشكر.

(٤) المصطلح موجود ومستعمل لدى الصوفية، ويقصد به: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً، أو هي: انكشاف الحقائق الإلهية للصوفي بنور يقذفه اللّه في صدره، بعد رياضات روحيّة كثيرة، وبعد قهر الجسد بطرق شتى، أو هي: حضور لا ينعت بالبيان، وهو عندهم علم بالباطن، لا يحصل بالتعليم والتعلم وإنما يحصل بالمجاهدة، التي جعلها الله تعالى مقدمة للهداية، قال الله تعالى: دَعَوُا اللَّهَ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ بِرُوا وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ و٢٢٧ (مكتبة الباز، السعودية – مكة المكرمة، د. ط. ت.)، وصديق القنوجي: أبجد العلوم: ٣٥٤/١، ٥١٧/٢ (تحقيق: عبدالجبار زكار، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، د. ط، ت١٩٧٨م)، وجبران مسعود: معجم الرائد: ١٢٤٢/٢.

٤. ليس في المصطلح أثر من آثار النموذج الغربي للاعترافات، خلاف مصطلح (الاعتراف).

٥. التوافق الطيب والمعبر بين صيغة المصطلح (مكاشفة) وبين عملية الكشف عن الذّات. فهي ليست عملية ميسورة ومتاحة لكل أحد، بل فيها محاورة ومدافعة بين الإنسان ونفسه، وفيها مساجلة وكرّ وفَرّ بين الرغبة الجادة في الصدق، وتحفظ الإنسان على أسراره الشخصية وتكتمه على عيوبه، وخوفه منها. وهذا التوافق ظاهر في صيغة الفعل والمصدر: (كاشف - مكاشفة).

والباحث -بطبيعة الحال- لا يقصد بهذا إلغاء مصطلح الاعتراف/الاعترافات ولا مصادرته من حقل الدراسات السيريّة، بل على العكس يقرّه ويعترف به، ولكنّه يجعله - مراعاة للدقة واحترامًا للعمق المعرفي والثقافي للمصطلح - ألصقَ بالنموذج المتحرر من سُلطة الدين والأخلاق سواء أكان غربيًا أم شرقيًا. وفي الجانب الآخر يضع مصطلح (مكاشفة/مكاشفات) ويرجح استخدامه لذلك النموذج المغاير، الذي ينطوي على تميّز حقيقي في طبيعة الإفضاء/البوح، ويظهر عليه مسحة من الالتزام الواعي خلقاً ودينـاً؛ كما في بعض أحاديث الأصحاب رضي الله عنهم والتابعين، وكما نجده عند ابن حزم، وابن الجوزي، وأحمد أمين، وعلي الطنطاوي، وأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري.

المبحث الرابع:

عتاب النفس ومحاسبتها:

ذكر ابن حجة الحموي (عتاب النفس) كغيره من البلاغيين غلطاً ووهماً منه ضمن (البديع)، وقد وصفه فقال: «إنه صفة لحال واقعة ليس تحتها كبير أمر)[1]. ولعلَّ هذا صحيح بالنسبة لقيمة عتاب النفس في علم البديع، ولكن بعيداً عن وهم البديعيين وتقديرهم، يعتقد الباحث أن عتاب النفس ومحاسبتها على جانب كبير من الأهمية، بل هو ثمرة المكاشفة / الاعتراف لاسيما عند الأديب المسلم الذي له تصوره الخاص عن الحياة والكون.

ولا ريب في أن محاسبة النفس وعتابها يمكن أن تَدْخُل - بشيء من التسمح-ضمن المكاشفة / الاعتراف ولكنني رأيت إفرادها:

-لأنها نموذج آخر تجود به الثقافة العربية كنموذج بالغ الحرارة للصدق في السير الذّاتية العربية والإسلامية.

-لغزارة نصوصها في المرويات والمدونات السيرية التراثية.

-لأنها أبلغ وأكمل وأكثر صدقاً وحرارة من نصوص الاعترافات/ المكاشفات.

-ولأنها مظهر مميز من مظاهر الصدق وصوره في السيرة الذاتية في الأدب العربي.

-ولأنها صورة أكثر خصوصية و حميمية من الاعتراف/المكاشفة؛ إذ لها غاية أخلاقية وإنسانية محددة.

-ولأنها تقوم على اتهام النفس وتصيد هفواتها لمحاسبتها وتمحيصها.

---

[1] خزانة الأدب وغاية الأرب: ١٤٤.

ويكون الكاتب خلال محاسبته لنفسه أو معاتبتها أقرب ما يكون إلى القارئ؛ لأن الذّات فيها تتجرد تماماً وتتلاشى الرغبة في الكتمان، وتبقى حاجة واحدة تحرك الكاتب وتدفعه وتلح عليه، وهي نقد الذّات وتفحص عيوبها وتصفية حساباتها، فيطرح من رصيده ما ليس له، ويؤدى ما كان عليه، ويتحقق مما هو له تحسباً للرحيل، وتمحيصاً للنفس.

ومحاسبة النفس ومعاتبتها مبدأ ديني. وقد جاء به الأمر في قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [1] فأمر اللَّه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وهو أمر يتضمن المحاسبة والنظر: هل يصلح ما قدّمه ليلقى به اللَّه أو لا يصلح؟!

ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم»[2]. ولذلك أيضًا تتسلل نصوص المحاسبة عند كاتب السيرة الذّاتية المسلم إلى أخفى المواطن والبواطن التي لا يدرك حقيقتها إلا اللَّه.

ولا تكون محاسبة ولا معاتبة إلا مع الضمير الحي، واليقين الراسخ بأن الحق أحق أن يقال، وأحق أن يصدع به. وأحرى بالنفس أن يساء بها الظن لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويُلَبِّسُ عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالاً، فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

---

[1] سورة الحشر: ١٨.

[2] نقلاً عن ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين: ١١٥ (تهذيب عبدالمنعم العربي).

فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السُّخط تبدي المساويا

«ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنّه بنفسه فهو أجهل الناس بنفسه»[1] وسوء الظن لا يعني ظلم النفس وإهانتها وتزوير المثالب والمعايب عليها لأنه مينٌ وظلم، ولكنه يعني التَّثبت والتَّروي في وزن ما يصدر منها من أفعال أو أقوال أو هواجس، لأن الإنسان يجامل نفسه وقد يمالئها. وهذا ما يُصلح النفس ويقومها، خلاف النظرة إلى الناس والتعامل معهم، فإن معنى عمارة الأرض إنما يتحقق بإحسان الظنّ بهم والإحسان إليهم.

وكما تتعدد موضوعات نصوص المكاشفة في الأدب السيري العربي تتعدد موضوعات نصوص المحاسبة فيها إلا أن المحاسبة ألصق بالإنسان وأكثر تَعمقاً لذاته، وأبعد تأثيراً في القارئ؛ لأنها توقفه على صورتين مختلفتين لشخصية واحدة في أقصى درجتي تناقضهما أحياناً، وتقدم له ذاتاً متطلعة إلى الكمال البشري الممكن وهي تكتوي بلظى الحزن والندم، وتتوجه إلى البارئ بإقرارها بالتقصير ليمنحها دفء الإيمان ويمنَّ عليها بالهداية والاستقامة، ويغسل حوبتها ويستر عيبتها، وبها تشعر النفس بما يشبه التطهر الفعلي.

ونعرض هنا لنموذج واحد لمحاسبة النفس قدمه الشيخ علي الطنطاوي[2]، بصفته نموذجًا معبِّرًا ومعاصرًا قدمه أديب فقيه، يقول:

---

[1] السابق: ١١٦.

[2] علي الطنطاوي: (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م - ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
أديب كبير، ولد في دمشق عام ١٣٢٧هـ في أسرة علم وأدب، كان والده مصطفى الطنطاوي أمين الفتوى في دمشق، وخاله الكاتب الإسلامي الكبير محبّ الدين الخطيب،

«واللَّه، ما أقول هذا الكلامَ أديباً يتخيل، ولكن، وأحلف لكم لتصدقوا: ما أقول إلا الحقيقة التي أشعر بها: أنا من خمسين سنة أعلو هذه المنابر، وأحتل صدور المجلات والصحف، وأنا أكلم الناس في الإذاعة من يوم أنشئت الإذاعة. ويسمعونني ويروننني في الرائي من يوم جاءنا الرائي، ولطالما خطبت في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وأندونيسيا وكثير من بلاد أوروبا خطباً زلزلت القلوب، ومحاضرات شغلت الناس، وكتبت مقالاتٍ كانت أحاديث مجالسهم. ولطالما مرّت أيام كان اسمي فيها على كل لسان في بلدي، وفي كل بلد عشت فيه. أو وصلتْ إليه مقالاتي. وسمعت تصفيق الإعجاب، وتلقيت خطب الثناء في حفلات التكريم. وقرأت في الكلام عني، ولي وعليّ: مقالات ورسائل، ودرس أدبي ناقدون كبار، ودُرّس ما كتبت وما قالوا عني في المدارس، وترجم كثير منه إلى أوسع لغتين انتشاراً في الدنيا: الانكليزيّة والأورديّة، وإلى الفارسيّة والفرنسية، إي واللَّه، فما الذي بقي في يدي من

كتب الطنطاوي في فنون النثر جميعًا، فكتب في القصة التاريخية والاجتماعية وقصص الناشئة، وأدب الرحلة، والسيرة الغيرية، والسيرة الذّاتية، وهو من كبار كتاب المقالة في العصر الحديث. يُعد من كبار كتاب مجلتي الرسالة والثقافة، رأس تحرير مجلة الرسالة حين مرض الأستاذ الزيات، وذلك في حياة كبار الأدباء من أمثال طه حسين والعقاد والرافعي. هاجر إلى المملكة العربية السعودية، واشتغل بالدعوة والتربية والتعليم والإصلاح الاجتماعي، وحصل على الجنسية السعودية، بلغ المنشور من كتبه نحوًا من خمسين كتابًا، وله أحاديث ومطارحات إعلامية في التلفاز والإذاعة واسعة الانتشار والتأثير، فاز بجائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام مناصفةً عام ١٤١٠هـ، فاضت روحه في مدينة جدّة بعد عشاء يوم الجمعة الثالث من شهر ربيع الأول من عام ١٤٢٠هـ، وصلي عليه في الحرم المكي الشريف، ودفن في مكة المكرمة. (يُنظر: أحمد علي آل مربع: علي الطنطاوي كان يوم كنت: صناعة الفقه والأدب، ص ٢٥-٧٩).

ذلك كله؟ لاشيء. صدقوني إن قلت لكم: لاشيء، وإنـي إن لـم يكتـب لـي بعـض الثواب من اللَّه على بعض هذا أخرج صفر اليدين.

إنني أقف مطلع العام لأحاسب الحياة على مـا أعطتنـي، وعلـى مـا أخـذتْ مني، فأجد أنها أخذت مني عمري الذي هو رأس مالي، فإن لـم أخـرج مـن هـذا العمر بعمل صالح ومغفرة من اللَّه، أكن قد خسرتُ كل شيء.

إن كل ما في الدنيا يذهب إن ذَهبـتُ، لا يبقـى لـي إلاّ مـا قـدمتُ لآخرتـي بـسم اللَّـه الـرحمن الـرحيم: ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾وتتواصـل محاسـبة الكاتـب نفـسه ليتكشف لنا مصادر القلـق والخـوف اللـذين يتملكـان فـؤاده حـين ينظـر إلـى مسيرته الفكرية وكفاحه القلمي، إذ تتوغل المحاسـبة إلـى أعمـاق البـاطن إلـى النيات التي لا يطلع عليها إلا اللَّه:

«إني من ستين سنة أعلم وأكتب وأخطب وأحـدّث، اللهـم لا أدّعـي أن ذلـك كُلّه كان خالصاً لوجهك، وليته كان. ولكني بـشر أطلـب مـا يطلبـه البـشر مـن المال الحلال، ويسرني المـديح، وتـستهويني متـع الـدنيا، فهـل يـضيع لـذلك جهدي كله؟! هل أخرج فارغ اليدين لم أنل شيئاً من الثواب؟!

إني لأمتحن نفسي، أُسائلها كل يوم، هـل كانـت الـدنيا وحـدها همـي؟ لـو عرض علي أضعاف ما آخـذه الآن علـى مقـالاتي وكتبـي وأحـاديثي، علـى أن أجعلها كتبا ومقالات وأحاديث في الدّعوة إلى الكفـر، هـل كنـت أرضـى؟ فليـست إذن كلها للدنيا، كما أنها ليست مبرّأة من مطالب الدنيا.

قلت لكم: إني أفكر في الموت، وأعرف أنـي علـى عتباتـه، إنّـه يمكـن أن أعيش عشرين سنة أخرى كما عاش بعض مشايخي، وكمـا يعـيش اليـوم نـاس من معارفي، ولكن هل ينجينـي ذلـك مـن المـوت؟ فمـا الـذي أعددتـه للقـاء ربي؟!!

اللهم إني ما أعددت إلا توحيداً خالصاً خالياً من الشرك، وإني ما عبدت غيرك، ولا وجَّهتُ شيئاً مما يعد عبادةً إلى سواك، وإني أرجو مغفرتك، وأخشى عواقب ذنبي، فاللهم ارحمني واغفر لي»[1].

ويحاصر نفسه كثيراً ويزداد في التضييق عليها ليحصل على إجابة حاسمة تريحه، ولكنه يخشى أن يجامل نفسه، أو يخشى أن تخدعه نفسه فتزين له عملها وتغره في لحظة المحاسبة كما غرتهُ -إن كانت قد غرّته فعلاً- في ساحة العمل؛ لذلك يتجه إلى قاضٍ محايد هو القارئ، فيضع بين يديه: اتهامه لنفسه، ودفاعه عنها ويترك له الحكم:

«أنا أكتب من ستين سنة كاملة، وآخذ على ما أكتب أجراً، لأنني كاتب محترف، كتبت آلافاً وآلافاً من المقالات، وأنا أحاسب نفسي الآن، وطالما حاسبتها قبل الآن؛ فأتساءل: هل أخذ الأجرة من الناس يذهب ما آمل من الثواب عند اللَّه، وأخشى أن أكون قد قضيت لنفسي، وأنا أعرض قضائي على القراء لأسمع ما لهم فيه من الآراء.

أنا أولاً أسأل نفسي، فأقول: يا نفس هل كنت تكتبين ما يخالف الدين ولو أعطيت على كتابته الملايين؟

فأجد الجواب اليقيني الصادق: أن لا.

وأسألها: إن لم يكن في الساحة من لم يُنْكر المُنْكر في الساحة غيرك يانفس، وكان الإنكار واجباً شرعاً، هل كنت تمتنعين عن إنكاره، لأنّك لم تُعطي أجرة الكتابة؟ فأجد الجواب اليقيني الصادق: أن لا.

---

[1] السابق: ٧/٢٩٣.

وأنا أقول ما كنت أقوله من قبل، هو: أني ما بدّلت -بحمد اللّه- ولاغيرتُ، وما قلت يوماً كلمة الباطل وأنا أعرف بطلانه، وإن صرت أعجز- أحياناً- عن أن أعلن كلمة الحق»[1].

ومن صور المحاسبة ما يتعرض فيه الكاتب لبعض الأعمال التي أقدم عليها في فترة ما من حياته، يتعرض لها وقد فقد الاتصال بها، وخفت في نفسه دواعي الإقدام عليها وبرئ من المغريات، فيعاتبها ويلومها إن أخطأت، ويتفحص ما صاحبها من النية إن أصابت، لأن عمدة الأعمال النيّة -كما ثبت في الحديث الصحيح[2]-:

«... لما عرضوا عليّ أن أتكلم في الرائي ترددت وخشيت أن يكون ظهوري فيه دافعاً لبعض الناس إلى اقتنائه، وربما رأوا فيه ما يضرّهم فأكون أنا السبب في ذلك، ثم لمّا ألحوا عليّ ورأيتُ النَّفع في ذهابي اشترطت عليهم شرطاً ولم أكن -أقول لكم الحق- من العباد الزاهدين، ولامن المتشددين المتزمتين، ولكن أحببت أن ألقنهم درساً، وأن أظهر عزّة العلماء، فاشترطت عليهم ألاّ أرى في طريقي إذا دخلت بناء الرائي امرأة سافرة. فخبَّؤوا البنات في الغرف، وأغلقوا عليهن الأبواب، ومنعوهن من الخروج. وصارت حادثة تروى ويتحدث بها وما أدري هل أحسنت بذلك أم أسأتُ؟ هل طبقت حكم الشرع فكان خيراً، أم وضعتُ في نفوسهم صورة قبيحة عن تزمت المشايخ وعن شدّتهم؟!»[3].

---

(1) السابق: ٨/١٣٩-١٤٠.

(2) يقول الرسول الكريم ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله، فهجرته إلى اللّه ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبُها أو امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» صحيح البخاري حديث رقم ١ و٥٤ جـ١/١٥، ١٦٤ (بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني).

(3) ذكريات الشيخ علي الطنطاوي: ٦/٩١-٩٢.

ومنها محاسبة نفسه على ما أقدم عليه حين ألقى كلمة حماسية في الإذاعة تدعو إلى انفصال سوريا عن مصر أيام الوحدة بينهما. وقد شهد كثير ممن كتب مذكرات عن هذه الحقبة من تاريخ سوريّا بما كان لكلمته هذه، وخُطبهِ قبلها وبعدها من أثر كبير في الناس، وذكر بعضهم أن مناطق في سوريا ما أيّد أهلها الانفصال إلا بعد ما سمعوا كلمته[1]، قال:

«ذهبتُ إلى الإذاعة فألقيتُ هذه الكلمة وسمعها الناس، وعدت إلى داري... ارتضاها وأثنى عليها جمهور من الناس، وسخطها وذمها وذم قائلها جمهور من الناس. وأذاعتها أو أذاعت فقرات منها إذاعات عربيّة كثيرة، وعلق عليها الموافق والمخالف، الصديق والعدو، حتى إذاعة إسرائيل أعادتها مرّات، وعلقت عليها بما شاءت وشاء لها هواها، وبغضها العرب والمسلمين، وكتبت عنها الصحف.

وهذا هو مقياس النجاح الإعلامي، ولكني أحاسب نفسي الآن فأفكر وأسأل: هل كنتُ مصيباً فيها أو مخطئاً؟ لا بالمقياس الإعلامي بل الإسلامي، هل أثاب عليها [أو] أؤاخذ بها؟ ألا يمكن أن أكون قد أعنتُ بها على زيادة الفرقة والانقسام؟

إن لي نفساً لوّامة، أعمل العمل ثم أعود فألوم نفسي عليه، وأحاسبها به في الدنيا قبل يوم الحساب، فهل أنا المخطئ فيها الملوم عليها؟ هل يلام من يشتكي وقع السياط عليه ويصرخ أو يشتم، أم يلام من يضربه بغير وجه حق؟

أما رأي الناس فلا أزعم أني لا أبالي به أبداً، ولكن أقول صادقاً إنني لا أبالي به كثيراً، إن الذي يهمني ألاّ أسخط اللّه علي، وألاّ أعمل عملاً أعرض

---

[1] ذكر لي ذلك د. محمد منير الغضبان: مقابلة معه بتاريخ: ١٤١٧/٨/١١هـ مكة المكرمة.

به نفسي لعقابه، فهل يعاقبني اللَّه على هذه الكلمة، وعلى موقفي يوم الانفصال؟

اللَّه يوم القيامة لا يسألنا فقط ماذا عملتم، بل يسألنا لماذا عملتم؟ أي أن اللَّه يحاسب على النيات مع حسابه على الأفعال. بل إن المعول عليه ما في القلب، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝﴾، أي تختبر النيات، وما تنطوي عليه الضمائر. واللَّه يعلم أنني ما أردت بها جلب منفعة لي، ولا جلبتها، ولا أردت دفع مضرّة عنّي، ولادفعتها. بل أردت بها المشاركة في إقامة الحق، وفي إنكار المنكر، وفي ذم السيء، وفي مدح المحسن»[1].

وقد كانت فترة القضاء من أخصب فترات حياة الطنطاوي، وأكثرها إحساساً بذاته وعملاً على تحقيق مآربه الإصلاحية داخل المحكمة وخارجها، ولكن هاجس الخوف من (الظلم) و(الجور) و(الاجتهاد الخاطئ) ظل يرافقه مدة كتابته لذكريات القضاء. وقد أخذ في وزن الأعمال التي أقدم عليها خلال هذه الفترة بميزان الحق، يعرضها للقارئ بحياديّة تامّة ولكن حياديتّه هذه لا تمنعه من أن يحكم لنفسه أحياناً إذا تبين له صحة ما أقدم عليه، كما يحكم عليها إذا أخطأ.

ومن ذلك إقدامه على العمل بالقضاء على ما يحفه من الأخطار وما يكتنفه من المزالق، لاسيما حين يكون القانون وضعيًّا لا يراعي متطلبات الإنسان وحاجاته:

«كنت أحاول في المحكمة أن أتحرى الحق، وأسلك طريق العدل، على مقدار ضعفي وعجزي، وكنت أرجو رضى اللَّه، ولكني شعرت في هذا اليوم الذي أُعد فيه هذه الحلقة بالخوف من عواقب دخول القضاء، وتمنيت لو أني

---

[1] ذكريات الشيخ علي الطنطاوي: ٦/٧٣-٧٤.

إحدى الطالبات راجعتها تقول: إنها تستحق درجة أعلى مما قدرت لها، فعادت إلى أوراقها، فرأت أنها قد أخطأتْ في الحساب، وخشيت أن تكون قد أخطأت مع غيرها من الطالبات، فسهرتْ ليلها كله لم تنم، تعيد الجمع والتقسيم، وتسألني ماذا تعمل؟ فأجبتها، ثم رجعت إلى نفسي فساءلْتها فقلتُ: ويحك يانفس ماذا تصنعين إذا كُنتِ قد أخطأت الصواب في بعض ما أصدرتِ من أحكام؟ وطار النوم من عينيَ أيضاً. وخفتُ اللَّه حقّاً، وفهمتُ لماذا كان أكابر العلماء يفرّون من القضاء.

لقد فرّ أبو حنيفة ومالك، وسفيان الثوري، وكثير من أمثالهم، ومن هو قريب منهم، إذا رجعتم إلى كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) لوجدتم طائفة من أخبارهم. فكيف أقدم أنا عليه؟ هؤلاء بحور العلم وأنا بركة صغيرة قليلة الماء، فكيف وسعت بركة صغيرة ما ضاق عنه البحور المحيطات؟ لقد حكمت في أكثر من خمسين ألف قضيّة، فإن أخطأت في واحد من الألف منها؛ لتعلق خمسون مسلماً بعنقي يوم القيامة، يريدون أن يأخذوا من حسناتي، وما أقل ما ادخرتُ لذلك اليوم من حسنات. لذلك تمنيت لو أني ما دخلت القضاء، ولا ذبحتُ نفسي بغير سكين.

فاللهم تداركني بعفوك ورحمتك، وإن أكن أخطأت فظلمت أحداً، فأرضه يا ربي عني بفضلك، فإنك تعلم أني ما تعمدتُ ظلم أحد»[1].

والطنطاوي لا يرى أنه مسئول عن ذاته فحسب، ولكن يرى أنه مسئول عن القارئ، وهذا هو الإخلاص الحقيقي للقارئ الذي يثق بمكانة الطنطاوي وعلمه وصدقه وحرصه على مصلحة أمته وقيمها. ولذلك كان الطنطاوي كثيراً ما يقف بعد أن يذكر شيئاً مما يرى أنه حاد فيه عن الطريق الأولى يقف مخاطباً القارئ وموجّهاً له ومبتعثاً من ذاته والموقف روح الفقيه

---

[1] السابق: ٦/ ٢٧٠-٢٧١.

ودوره، فيقول مثلاً وقد ذكر عن نفسه أنه كان يتمرّد على رؤسائه ولا يستجيب لتعليماتهم:

«وأنا لا أرى للشباب أن يقلّدوني، ولكن أذكر ما كان، وأنا أعلم أنّه لا يستقيم أمر أُمَّة إذا تمرّد موظفوها على رؤسائهم، أو تكبر عليهم رؤساؤهم، إنما يستقيم أمرها إذا وَقَّر صغيرها كبيرها، ورحم كبيرها صغيرها، واتبعوا في ذلك منهج الإسلام، وسُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم»[1].

ويقول في محاسبته لنفسه على ما كان يرتجله من إصلاحات إدارية وقانونية دون الرجوع إلى رؤسائه:

«إني لأفكر الآن؛ فأتساءل: هل ما عملته صواب؟ ولو سئلتُ عن مثله هل أفتي به، وأنصح السائل بأن يعمل مثل ما عملت! أظن بأن الجواب: لا. لأننا لو تركنا لكل موظف أن يجتهد رأيه، وأن ينفِّذ ما يراه من غير أن يرجع إلى رئيس يملك حق البت في الموضوع، لصارت الأمور فوضى، ولفسدت حياة الناس. فالذي عملته كان بالمصادفة خيراً، ولكن عمل مثله وجعله قاعدة يكون منه شر مستطير»[2].

إنَّ التراث العربي مليء بمثل هذه الإشراقات السيرية المميزة، ويكفي الإشارة لها هنا. ولعلَّ الله ييسر لي أو لغيري من الباحثين دراستها بصورة أكثر استيعابًا واستغراقًا..

---

(1) السابق: ٣/١٧١.

(2) السابق: ٤/١٩٨.

مسـرد

المصادر والمراجع[1]:

[1] لم يذكر الباحث من المصادر والمراجع إلا ما رجع إليه بشكل مباشـر، وإليـك تفـسيرًا للرموز المستخدمة في مسرد المصادر والمراجع:

الرمز	المعنى المراد به
د.	بدون.
ت.	تاريخ.
ن.	نشر / ناشر.
ط.	رقم الطبعة.
د. ت.	دون تاريخ.
د. ن.	دون ناشر.
د. ط.	دون رقم الطبعة.
د. ت. ن. ط.	دون تاريخ، ولا اسم الناشر، ولا رقـم الطبعة.

أولاً: المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- ابن الجزري:

النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، دار المكتبة العلمية، لبنان- بيروت، ط١، ت١٣٩٩هـ١٩٧٩م.

- ابن الجوزي (عبدالرحمن بن علي):
  - صيد الخاطر، تحقيق ومراجعة وتعليق: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دار المنارة، السعودية - جدّة - ط٥، ت ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.
  - غريب الحديث، تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ط١، ت١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
  - لفتة الكبد في نصيحة الولد، دار القاسم للنشر، السعودية - الرياض، ط٢، ت ١٤١٨هـ.

- ابن حبَّان البستي:

صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط٢، ت١٤١٤هـ -١٩٩٣م.

- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي):

فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريّان، تحقيق: الشيخ عبدالعزيز بن باز ومحب الدين الخطيب، ومراجعة قصيّ محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبدالباقي، مصر - القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- ابن حجة الحموي (الشيخ تقي الدين أبو بكر علي):
خزانة الأدب وغاية الأرب، دار القاموس الحديث، لبنان – بيروت، ط٤، ت١٣٠٤هـ.

- ابن حزم الظاهري (أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي):
طوق الحمامة في الألفة والأُلاَّف، تحقيق: المحامي فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، لبنان – بيروت، ط١، ت ١٩٩٢م.

- ابن سعد (محمد بن سعد):
الطبقات الكبرى، دار الفكر، د. ط. ت.

- ابن ماجه (محمد بن يزيد القزويني):
سنن ابن ماجة، مراجعة محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر: بيروت د. ط. ت.

- ابن منظور (محمد بن مكرم):
لسان العرب، دار صادر، لبنان – بيروت، د. ط. ت.

- أبو بكر الجزائري:
منهاج المسلم، دار الشروق، السعودية – جدّة، ط٨، ت ١٤٠٨هـ– ١٩٨٧م.

- أبو عبدالرحمن ابن عقيل (محمد بن عمر):
  - تباريح التباريح، دار الصحوة للنشر والتوزيع، السعودية – الرياض، ط١، ت ١٤١٢هـ.
  - شيء من التباريح، دار ابن حزم، السعودية – الرياض، ط١، ت١٤١٥هـ.

- ابن قتيبة:

عيون الأخبار، تحقيق د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، د.ط.ت

- ابن قيم الجوزية (أبو عبداللّه محمد بن أبي بكر الدمشقي):

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بتهذيب عبدالمنعم العِزّي، مطبعة كاظم، الإمارات العربية المتحدة، د. ط. ت.

- أبو هلال العسكري (الحسن بن عبداللّه بن سهل العسكري):

الفروق اللغوية، ضبط وتحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، د. ط. ت.

- د. إحسان عباس:

فن السيرة، د. ن، ط٦، ت ١٩٨٩م.

- أحمد أمين:

♦حياتي، مكتبة النهضة، مصر-القاهرة، ط٧، ت١٩٨٩م.

♦فيض الخاطر، مكتبة النهضة، مصر القاهرة، د.ط..ت.

- أحمد بن حنبل:

المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة – مصر، د. ط. ت.

- أحمد علي آل مريع:

علي الطنطاوي: كان يوم كنتُ.. صناعة الفقه والأدب، شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، السعودية-الرياض، ط١، ت١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.

- أحمد فارس الشدياق:

الساق على الساق في ما هو الفارياق، دار مكتبة الحياة، لبنان – بيروت، ط١، ت ١٩٦٦م.

- أعضاء قسم اللغة العربية بكلية الإنسانيات – جامعة قطر:
المدخل لدراسة الأدب واللغة، دار قطري بن الفجاءة، قطر – الدوحة، ط٣، ت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

- الألباني (محمد ناصر الدين):
السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ط/ ت ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

- الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين محمود البغدادي):
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، تصحيح عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، ط١، ت١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

- أندريه موروا: ٧
♦ أوجه السيرة، ترجمة: ناجي الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة ودار الحرية للطباعة، العراق – بغداد، د. ت.

- أنور الجندي:
المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام، دار الرسالة، ط١ ت ١٣٨٠هـ.

- أنور المعدّاوي:
نماذج فنية من الأدب والنقد، مكتبة مصر، مصر – الفجالة، د. ط. ت.

- البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل):
♦ الأدب المفرد، خرج أحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، صنع فهارسه: رمزي سعد الدين دمشقية، دار البشائر الإسلامية، لبنان – بيروت، ط٣، ت١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
♦ صحيح البخاري (بشرح فتح الباري للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني)، تحقيق: الشيخ عبدالعزيز بن باز ومحب الدين الخطيب،

ومراجعة وترقيم: قصي محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبدالباقي، دار الريّان للتراث، مصر – القاهرة، ط١، ت ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- الإمام البنلسي (محمد بن علي):

تفسير مبهمات القرآن، أو صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل، تحقيق عبداللّه بن عبدالكريم محمد، دار الغرب الإسلامي، ط١، ت ١٤١١هـ-١٩٩١م.

- البيهقي (أحمد بن الحسين):

السنن الكبرى، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، تحقيق:عبدالقادر عطا، د.ط. ت.

- الترمذي (محمد بن عيسى):

الجامع الصحيح، راجعه أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، لبنان – بيروت، د.ط.ت.

- جبران مسعود:

الرائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، لبنان – بيروت، ط٤، ت ١٩٨١م.

- الجرجاني (علي بن محمد):

التعريفات، المكتبة الفيصلية، السعودية – مكة المكرمة، د. ط. ت.

- جميل صليبا:

علم النفس، دار الكتاب اللبناني، لبنان – بيروت، ط٣، ت ١٩٧٠م.

- حسان بن ثابت:

ديوان حسان بن ثابت، بشرح عبدالرحمن البرقوقي: دار الكتاب العربي، لبنان – بيروت، د. ط، ت ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

- الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر):
مختار الصحاح، مكتبة لبنان، لبنان – بيروت، د. ط، ت ١٩٨٩م.

- الراغب الأصفهاني:
♦ المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان – بيروت.
♦ معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم المرعشلي، مطبعة التقدم العربي، لبنان – بيروت، ط١، ت ١٣٩٢هـ–١٩٧٢م.

- د.سيد سابق:
إسلامنا،دار الكتاب العربي، لبنان– بيروت، د.ط.ت.

- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن):
التحدث بنعمة اللّه، تحقيق: إليزابث ماري سارتين، المطبعة العربية الحديثة، مصر – القاهرة، ط١، د. ت.

- طه حسين:
الأيام، مصر – القاهرة، ط٥٤، د. ن. ت.

- د. عبدالرحمن بدوي:
الموت والعبقرية، وكالة المطبوعات، الكويت، د. ط. ت.

- عبداللّه الحيدري:
السيرة الذّاتية في الأدب السعودي، دار المعراج الدولية، السعودية– الرياض، ط١، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م.

- العقاد (عباس محمود):
أنا، المكتبة العصرية، تقديم: طاهر الطناحي، لبنان–بيروت، د.ط.ت.

- علي أدهم:

لماذا يشقى الإنسان، مطبعة نهضة مصر، مصر – الفجالة، د. ط. ت.

- علي عبده بركات:

* اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية، مطبوعات تهامة، السعودية – جدة، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

* يوميات في الثقافة العربية، دار الفكر العربي، مصر – القاهرة، د. ط. ت.

- علي الطنطاوي:

ذكريات علي الطنطاوي، دار المنارة، السعودية – جدة، ط١، ت١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- د. غازي بن عبدالرحمن القصيبي:

سيرة شعرية، دار الفيصل الثقافية، السعودية – الرياض، ط١، ت ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد):

♦ إحياء علوم الدين، طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦هـ – دار الفكر، لبنان – بيروت، د. ط.

♦ أيها الولد، تحقيق علي محي الدين القمر واغي، دار الاعتصام، مصر – القاهرة، ط٢، د. ت.

♦ المنقذ من الضلال، تحقيق محمد أبو العلا ومحمد جابر، مكتبة الجندي، مصر – القاهرة، د. ط، ت ١٩٧٣م.

- أبو الفتح المطرز، وقاسم القونوي:

المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق: محمود فاخوري وعبدالحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، سوريا- حلب، ط١، ت ١٩٧٩م.

- الفيروز آبادي (أبو طاهر محمد بن يعقوب):

القاموس المحيط (بترتيب:طاهر الزواوي) ، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٢، د. ت.

- الفيومي:

المصباح المنير، المكتبة العلمية، لبنان – بيروت، ط.د.ت.

- قاسم القونوي:

أنيس الفقهاء، تحقيق: أحمد الكبيسي، دار الوفاء، السعودية-جدة، ط١، ١٤٠٦هـ.

- ليون إدل:

فن السيرة الأدبية، ترجمة: صدقي حطاب، دار العودة، لبنان – بيروت، ت ١٩٨٨م.

- الإمام مالك (ابن أنس):

الموطأ (بشرح تنوير الحوالك للإمام جلال الدين السيوطي) دار الندوة الجديدة، لبنان – بيروت، د. ط. ت.

- د. ماهر حسن فهمي:

♦ السيرة تاريخ وفن، مكتبة النهضة المصرية، مصر – القاهرة، ط١، ت ١٩٧٠م.

♦ فصل بعنوان (فن السيرة) في كتاب مشترك بعنوان: (المدخل لدراسة الفنون الأدبية) ص٥٥-٩٢، دار قطري بن الفجاءة، قطر – الدوحة، ط٢، ت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- المتقي الهندي (علي المتقي علاء الدين الهندي):

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند – حيدر آباد الدكن، ط٢، ت ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م.

- محمد أبو زهرة:

محاضرات في النصرانية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية – الرياض، ط٤، ت ١٤٠٤هـ.

- محمد بن جعفر الخرائطي:

مساوئ الأخلاق، مكتبة عباس الباز، السعودية – مكة، د. ط. ت.

- الشيخ محمد الزرقاني:

شرح الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ت١٤١١هـ.

- د. محمد صالح الشنطي:

الأدب العربي الحديث، دار الأندلس، السعودية – حائل، ط١، ت ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

- د. محمد عابد الجابري:

حفريات في الذاكرة من بعيد، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان – بيروت، ط١، ت أغسطس ١٩٩٧م.

- الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري):

♦ صحيح مسلم، بمراجعة وترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، مصر – القاهرة، ط١، ت ١٤١٢هـ–١٩٩١م.

♦ صحيح مسلم (بشرح الإمام النووي) دار الفكر، لبنان – بيروت، د. ط. ت.

- د. يحيى عبدالدايم:

الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار النهضة العربية، لبنان – بيروت، د. ط. ت.

ثانياً: الدوريات:

- رودلف زلهايم:

خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية، مجلة مجمع اللغة العربية – جـ٤١، الدورة الرابعة والأربعون، جمادى الأولى ١٣٩٨هـ – مايو ١٩٧٨م.

- عبدالله الحيدري:

في تباريح ابن عقيل الظاهري.. شجاعة في الاعتراف وتنظير موفق في فن السيرة، المجلة العربية، عدد ٢٣٧، السنة ٢١، شوّال ١٤١٧هـ – فبراير – مارس ١٩٩٧م.

- د. محمد رجب البيومي:

منهج الأدب الإسلامي في السيرة الذاتية، مجلة الأدب الإسلامي، عدد ٣، م/ ١، محرم – صفر – ربيع الأول ١٤١٥هـ، حزيران (يونية – تموز (يوليه) – آب (أغسطس) ١٩٩٤م.

- يوسف الشاروني:

تراثنا والاعتراف.. الخوف من تعرية الذات، مجلة العربي، العدد ٤٤٤، نوفمبر ١٩٩٥م.